

١٧

الصراع بين العرب والاستعمار في عصر التوسع الأوربي الأول

حصار
(٢)

مقدمة

عقدها الاتحاد بمقره في القاهرة
٢٥-٢٦ جمادى الآخرة ١٤١٥ هـ
٢٨-٢٩ نوفمبر ١٩٩٤ م

المحتويات

الصفحة

- كلمة رئيس الاتحاد ١٤
- انتقال الحركة الصليبية من الأندلس إلى بلاد المغرب بعد سقوط غرناطة ٢١
- أ. د. محمد محمود السروجي
- دور الجزائر في الجهاد البحري في النصف الأول من القرن السادس عشر ٥٥
- أ. د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم
- الكشف الجغرافية البرتغالية والأسبانية وأثرها على الصراع بين العرب والاستعمار الأوربي ٩٥
- أ. د. شوقي عطا الله الجمل
- النشاط الاستعماري الهولندي في البحر الأحمر وجنوب الجزيرة العربية في القرن السابع عشر للميلاد ١٢١
- أ. د. فاروق عثمان أباطة
- مصر وحماية البحر الأحمر في ختام العصور الوسطى ١٤١
- أ. د. فتحية عبد الفتاح النبراوي
- الصراع بين القواسم وبريطانيا (١٤٩٨ - ١٧٩٨) ١٦١
- د. عبد الوهاب بن سالم بابعير
- الاتصالات الأوربية الحبشية وأثرها على العالم العربي في أواخر العصور الوسطى وفجر الحديثة ٢٠١
- د. سعد بلدير الحلواني

- جدة فى مواجهة الخطر البرتغالى خلال الثلث الأول من القرن العاشر الهجرى (السادس عشر للميلاد)
٢٢٧
- د. غيثان بن على بن جريس
- التقانة العربية الإسلامية فى مواجهة التقانة الأوربية (١٤٩٨-١٧٩٨) ٢٧٣
م. لطف الله قارى

جدة في مواجهة الخطر البرتغالي

خلال الثلث الأول من القرن العاشر الهجري

(السادس عشر الميلادي)

د. غيثان بن علي بن جريس(*)

تميزت جدة ، منذ صدر الإسلام ، بأنها ثغر مكة المكرمة المطل على البحر الأحمر ، كما أنها معبر للمسلمين الذين يفدون بجرأ إلى الحجاز لأداء مناسك الحج والعمرة . وأدى هذا وذاك إلى ازدهار النشاط التجاري لهذا الميناء طيلة العصور الإسلامية (١) .

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك ورئيس قسم التاريخ بكلية التربية - جامعة الملك سعود ، فرع أبها .

(١) للمزيد من التفصيلات عن أهمية ميناء جدة منذ صدر الإسلام، انظر محمد عبد الله الأزرقى ، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدى ملحس (مكة المكرمة: مطابع دار الثقافة، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) ج ٢ ص ٧٦، ٨٠، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣٠٢، تقى الدين محمد بن أحمد الفاسى، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق لجنة من كبار العلماء والأدباء (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت) ج ١، ص ٨٦ - ٨٨، عبد القادر بن أحمد بن فرج، رسالة فى تاريخ مدينة جدة، السلاح والعدة فى تاريخ بندر جدة، تحقيق محمد عيسى الصالحية (بيروت: دار الحداثة للطباعة والنشر، ١٩٨٣م) ص ٤٠ وما بعده ، عبد القدوس الأنصارى، موسوعة تاريخ مدينة جدة (القاهرة: دار مصر للطباعة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) ص ٧٥ وما بعدها ، على بن حسين السليمان. "ميناء جدة فى القرن التاسع" مجلة العرب. (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م) ج ١٢، ص ٩٣٥ - ٩٤٩ .

G. R. Hawting. "The Origin of Jeddah and the Problem of al - Shuayba" Arabica Vol. XXXI (1984) PP. 318- 326.

ونظراً لهذه الأهمية على مدار تاريخها الإسلامى ، خاصة منذ القرن الثالث الهجرى وحتى نهاية القرن التاسع الهجرى (القرن التاسع الميلادى وحتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى) فإن هذا الميناء فى حاجة إلى مزيد من عناية الباحثين بقدر من الأفاضة والتفصيل^(٢) .

أما سبب اختيار الباحث أن يلقي الضوء على أهمية جدة ، فى أواخر العصر المملوكى ، فيرجع إلى أن هذه الفترة يواكبها التهديد الأوروبى للمسلمين وهو التهديد الذى استهله البرتغاليون الذين تصاعدت أطماعهم بدءاً بالسعى إلى

(٢) وللإطلاع على معلومات أكثر عن أهمية ميناء جدة فى البحر الأحمر خلال القرون الإسلامية الوسيطة، وكيف كانت تجتد الاهتمام والرعاية من خلفاء وسلطين وأمراء المسلمين فى كل من الحجاز، والشام، ومصر، والعراق، انظر . الأزرقى، أخبار مكة، ج ٢، ص ٧٦، ٨٠، ٣٢٣، ٣٢٧، محمد بن محمد عبد الله الأدرسى، كتاب نزهة المشتاق فى إختراق الآفاق (بيروت : عالم الكتب، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م) ج ١، ص ١٣٨ - ١٣٩، جمال الدين يوسف بن المجاور، بلاد اليمن ومكة وبلاد الحجاز المسمى : - تاريخ المستبصر. تحقيق أوسكر لوفجرين (ليدن: مطبعة برييل، ١٩٥١م) ج ١، ص ٤٠ - ٤٨، الفاسى، شفاء الغرام، ج ١، ص ٨٧ وما بعدها، قطب الدين المكى النهروالى. كتاب الأعلام بأعلام بيت الله الحرام (بيروت : مكتبة خياط، ١٩٦٤م) ص ٧٩، أحمد عمر الزيلعى مكة وعلاقاتها الخارجية (٣٠١ - ٤٨٧هـ) (الرياض: عمادة شؤون المكتبات بجامعة الرياض، ١٩٨١م) ص ١٧٧ - ١٨١، حسنين محمد ربيع. "وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادى لموانى الحجاز واليمن فى العصور الوسطى"، الندوة العالمية الأولى لدراسة تاريخ الجزيرة العربية. (الرياض، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م) مج ١، ج ١، ص ١٣٥ الأنصارى ، موسوعة تاريخ مدينة جدة ص ٧٧ وما بعدها،

إكتشاف طريق رأس الأعاصير (الرجاء الصالح فيما بعد) وحتى محاولتهم تطويق العالم الإسلامى وخنقه اقتصاديًا والقضاء على هويته من حيث الدين واللغة والحضارة (٣). وقد حاول الغرب الأوروبى ذلك عن طريق السيطرة على تجارة الشرق الأقصى واحتكارها ومنع وصولها إلى بلاد المسلمين ، ثم محاولة الوصول إلى قلب القارة الأفريقية عن طريق البحر ، وتحويل التجارة عن طريق البحر الأحمر وطريق القوافل إلى الطريق البحرى حول أفريقيا ، وإلى موانئ المحيط الأطلسى . وجاء هذا النشاط مصحوبًا بالرغبة فى أحياء الروح الصليبية والإنتقام من

(٣) ولمعرفة الطرق والأساليب التى قام بها البرتغاليون للإلتفاف حول أفريقيا والوصول إلى شواطئ الهند، ثم مهاجمة المسلمين فى كل من الخليج العربى والبحر الأحمر، انظر: يحيى بن الحسين بن القاسم : غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى. تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م) ج ٢، ص ٦٢٩ وما بعدها، عفيف الدين أبو محمد عبد الله باخرمة. البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه: - نصوص جديدة مستخلصة من مشاهدات باخرمة كما سجلها فى مخطوط "قلادة النحر" دراسة وتحقيق محمد عبد العال أحمد (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م) ص ٩٧ وما بعدها ، سعد زغلول عبد ربه . "البرتغاليون والبحر الأحمر" سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث، جامعة عين شمس، البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة (القاهرة ، ١٩٨٠م) ص ٢٠٥ - ٢٢٢ ، ويوجد ضمن هذا السمنار دراسات جيدة تفيد القارئ فى معرفة ما بذله البرتغاليون من جهود عدائية تجاه المسلمين. وفى الجزء الثانى من أبحاث: - ندوة رأس الخيمة التاريخية، والمنعقدة فى (٥ - ٧ محرم ١٤٠٨ هـ / ٢٩ - ٣١ أغسطس ١٩٨٧م) العديد من الأبحاث القيمة التى تصور هجمات البرتغاليين على الخليج العربى، والسواحل الأفريقية.

المسلمين^(٤) لذلك حرصوا على الإتصال بالمسيحيين فى الشرق وخاصة الأقباش
النصارى ، وإماطة اللثام عن لغز مملكة القديس يوحنا Prester John^(٥) ونحويل
العناصر الوثنية فى الشرق إلى المسيحية^(٦) ولذلك خططوا للتعاون مع مسيحي

(٤) وللإطلاع على تفصيلات أكثر عن الحروب الصليبية فى الشرق الأدنى، انظر،
سعيد عبد الفتاح عاشور. أوربا فى العصور الوسطى، التاريخ السياسى (القاهرة : مكتبة
الأنجلو المصرية ، ١٩٦٦م) ج ١، ٤٣٦، - ٤٦٤، وللمؤلف نفسه، الحركة الصليبية صفحة
مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى القاهرة، ١٩٧٥م) جزءان.

(٥) كلمة (Prester) بمعنى القس ، والقديس يوحنا شخصية خرافية، كان أهل
أوربا يعتقدون بوجودها، وأنه يحكم إمبراطورية واسعة فى آسيا. غير أن أهل أوربا فى القرن
التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) وجدوا أن المقصود بهذه الشخصية ملك الحبشة
المسيحى. وللمزيد من التفصيلات انظر. شهاب الدين أحمد بن عبد القادر عرب فقيه. تحفة
الزمان أو فتوح الحبشة. نشره مع مقدمة بالفرنسية رينيه باسيه، وحققه فهيم محمد شلتوت
(القاهرة ، الهية المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م) ص ٤٠، وما بعدها، إبراهيم على
طرخان : البرتغاليون فى غرب افريقيا القاهرة: مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٦٧م ص ٤١،

S. Bovil : The Golden Trade of the Moors (London, 1962) PP. 92ff.

(٦) المعروف أن دولة أكسوم (الحبشة) اعتنقت المسيحية منذ القرن الأول الميلادى،
وعملت جاهدة على نشر المسيحية بين الوثنيين فى افريقيا منذ ذلك التاريخ وإزداد نشاطها
بعد ذلك بدعم من بيزنطة، فظلت الحبشة من ذلك الوقت على تعصبها الشديد لمسيحياتها،
ويقول المقرئى: - الحبشة يتشددون فى ديانتهم تشددا زائدا ويعادون من خالفهم من سائر
الملل أشد عداوة ويعادون الطائفة الملكانية من النصارى. ولعل مبعث هذا التعصب ضد الإسلام
خاصة هو إحاطة الإسلام بالحبشة من جميع الجهات تقريبا، كما كان من أهداف المسلمين نشر
الإسلام فى تلك الرقعة بين الوثنيين مما شكّل الباعث الأكبر على الحروب التى نشبت بين
الحبشة والممالك الإسلامية التى جاورتها. وجاء البرتغاليون بعد ذلك وظهرت أهدافهم الصليبية
عندما وقفوا مع الحبشة فى هذا الصراع، انظر، المقرئى الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من
ملوك الإسلام (مصورة عن نسخة بالاسكوريال، ص ٣، عبد المجيد عابدين . بين العرب
والحبشة، القاهرة : د.ن، ١٩٥٩م) ص ١٤.

الحبشة لمحاربة المسلمين فى منطقة القرن الأفريقى (دول الطراز الإسلامى السبع وعلى رأسها مملكة أوفات الإسلامية) (٧) ؛ ثم التوصل إلى سواحل البحر الأحمر الشرقية ، وخاصة ثغر جدة الذى يقودهم إلى مقدسات المسلمين فى الحجاز ليتمكنوا من تدميرها والتأثر من المسلمين (٨) .

(٧) وقد وصف القلقشندى هذه البلاد الأفريقية بقوله: "... البلاد المقابلة لبر اليمن على بحر القلزم، وما يتصل به من بحر الهند، ويعبر عنها بالطراز الإسلامى لأنها على جانب البحر كالطراز له". وقد تكونت إمارات الطراز الإسلامى هذه نتيجة زيادة عدد المسلمين فى هذه المنطقة ذات الأهمية البالغة فى تجارة البحر الأحمر . وقد تبلور الوجود الإسلامى بهذه المنطقة من الناحية السياسية فى سبع إمارات ظهرت مع بداية القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، وهذه الإمارات هى : - أوفات ، ودواردو ، واراينى ، وهديا ، وشرخا ، وبالى ، وداره . وقد تأرجحت ما بين التبعية السياسية للملك الحبشة والإستقلال عنه ، بل ومحازبته أحيانا . وكانت إمارة أوفات هى أقواها جميعا . وقد شهدت القرون الثامن ، والتاسع ، والعاشر الهجرية (الرابع عشر ، والخامس عشر ، والسادس عشر الميلادية) سلسلة من المعارك بين الحبشة ودول الطراز الإسلامى بسبب التنافس للسيطرة على المراكز التجارية فى داخل الحبشة وميناء زيلع على الساحل الصومالى . وإستعان مسلمو الحبشة بدولة الممالك ، ولكن بعد المسافة ووعورة الطريق لم يتح لمصر أن تقدم أى مساعدة فعالة لهم ، كما إستعان الأحباش النصرى بالأوربيين . لمزيد من التفصيلات انظر أحمد بن على القلقشندى . صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء (القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ، د. ت) ج ٥ ، ص ٣٢٤ - ٣٣٠ ، تقى الدين أحمد المقرئ . الإلام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام . (القاهرة : د. ن، ١٩٧٢م) ص ١٢٥ وما بعدها .

(٨) كانت البابوية قد حرصت منذ القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) على تقوية صلتها بدولة الحبشة المسيحية فقام وليم آدم ، الراهب الدومينيكانى الذى اختاره البابانيقولا الرابع عام ١٣٠٥م للتبشير فى الشرق برحلة طويلة زار أثناءها الحبشة ، ثم عاد إلى

وهكذا نجح البرتغاليون فى النزول على شواطئ بلاد الهند فى مطلع القرن العاشر الهجرى (أواخر القرن الخامس عشر الميلادى)، وبالتالى أخذوا فى تقليل الصعاب التى تعترض وصولهم إلى البحر الأحمر، ثم الأماكن المقدسة فى الحجاز عن طريق ثغر جدة. وسوف نركز حديثنا فى هذا البحث على الحملات التى قادها نواب ملك البرتغال فى الهند على ميناء جدة فى الثلث الأول من القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) مع العناية بإيضاح الأساليب العدوانية الصليبية التى اتبعوها فى مواجعة المسلمين ومحاربتهم . هذا مع العناية بإبراز رد

أوروبا فى عام ١٣١٦م ، بعدما نجح فى تحقيق أهدافه ومنها تدعيم علاقات التعاون بينهما ، مثلما نجح فى إستشارة ملوك الحبشة ضد المسلمين ، وبالتالى جذب هؤلاء الملوك إلى داخل دائرة الحرب الصليبية . وقد قويت الاتصالات الحبشية البرتغالية ضد العالم الإسلامى ممثلاً فى دولة المماليك فى مصر بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح . وبعد هزيمة الأسطول المصرى فى ديو عام (٩١٥هـ / ١٥٠٩م) ، أرسلت هيلانه ملكة الحبشة رجلاً أرمينيا يدعى ماثيو على رأس سفارة عام (٩١٦هـ / ١٥١٠م) إلى إمانويل (عمانوئيل) ملك البرتغال لمفاوضته من أجل التحالف ضد المسلمين . وقد لقبته فى رسالتها بلقب (قاهر المسلمين) وظهرت فى رسالتها الرغبة الملحة من أجل التعاون لكى تصل جنودها مع الأحباش إلى الحجاز لغزو مكة المكرمة ، وتحطيم الكعبة ، وإغلاق البحر الأحمر من الطور شمالاً ، ومن باب المندب جنوباً . وللمزيد من التفاصيل عن العلاقة بين الأحباش والقوى الأوربية ، انظر سعيد عاشور الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٥٣ ، وللمؤلف نفسه (بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى) مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، عدد (١٤) (١٩٦٨م) ،

F.F. Alvarez. (A Portuguese) Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia During the Year 1520 - 1527. Translated by Lord Stanley (London, 1881) pp. 311 - 313, 393 ff; A.S. Atiya. The Crusade in the Later Middle Ages (London , 1938) pp. 161 - 162.

فعل المسلمين على تلك الهجمات البرتغالية ، وخاصة من جانب سلاطين الماليك فى عهد آخر سلاطينهم قانصوه الغورى (٩٠٦هـ / ١٥٠١م - ٩٢٣هـ / ١٥١٧م) هذا بالإضافة إلى دور بعض مسلمى الهند واليمن والحجاز والعثمانيين فى الأستانة، على أن ننهى البحث بإبراز بعض الآثار السلبية على ثغر جدة من خلال الصراع الإسلامى البرتغالى فى تلك الحقبة .

* * *

سعى البرتغاليون فى إكتشاف طريق رأس الأعاصير (الرجاء الصالح) (٩) ، تحت تأثير العامل الإقتصادى والرغبة فى الوصول عن طريق -غير طريق المسلمين- إلى ثروات الشرق . لكن العامل الدينى وراء هذه الحركة كان لا يقل أهمية عن الدافع الإقتصادى . وقد ظهر ذلك جلياً فى تشجيع بابا روما لملك البرتغال إمانويل (Emmanuel) ٩٠١هـ / ١٤٩٥م - ٩٢٨هـ / ١٥٢١م) الذى أطلق عليه اسم "سيد الملاحة والفتح والتجارة فى أثيوبيا وبلاد العرب وفارس

(٩) بار ثلمبيدياز الذى وصل عام (٨٩٢هـ / ١٤٨٦م) إلى خليج الجوا (Algoa) على الشاطئ الجنوبى الشرقى لأفريقيا بعد أن دار حول القارة ، هو الذى أطلق على رأس القارة من الجنوب اسم رأس العواصف (Cabo Termentoso) ، وجاءت تسميته هذه نتيجة لأن العواصف الرعدية الشديدة التى تهب على هذه المنطقة تحدث أصواتاً عنيفة . ولكن ملك البرتغال حنا الثانى غير الاسم إلى (رأس الرجاء الصالح) وذلك تفاؤلاً بقرب الوصول إلى الهند . وللمزيد انظر :

J.Fage, *An Atlas of African History* (Cambridge, 1958) pp. 26 - 27; H.H. Johnston, *A History of the Colonization of Africa by Allien Races* (Cambridge, 1913) pp. 80 - 81, 99.

والهند" (١٠) بل إن ملك البرتغال نفسه أشار فى بعض خطاباته أثناء إرسال البعثات الكشفية الأولى إلى الهند ، إلى أن الهدف الأساسى من إرسالها هو نشر المسيحية والحصول على الثروات (١١) .

وقد وجه البرتغاليون فى بادئ أمرهم حملاتهم الكشفية إلى بلاد الهند . وبعد أن دانت لهم السيطرة البحرية على أجزاء هامة فى المحيط الهندى ، كشفوا عن وجههم فقاموا بإعتداءات على مسلمى الهند انتهكوا فيها أعراضهم ، ومنعواهم من الذهاب إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج ، ودمروا مساجدهم وأحرقوا مصاحفهم (١٢) . وقد أشار صاحب تحفة المجاهدين إلى أنهم أثاروا الرعب فى قلوب الناس ، ونشروا الخراب والدمار فى أنحاء البلاد (١٣) . وأضاف النهروانى (من مؤرخى القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر الميلادى) أنهم كانوا "يقطعون

(١٠) وقد استمر هذا اللقب يطلق على ملك البرتغال فترة من الزمن بعد ذلك ، وهو يعكس الدوافع الحقيقية للنشاط البرتغالى ، الذى حظى بمباركة وتشجيع هذا البابا ، الذى حاول أن يقوم بدور مشابه للدور الذى قام به البابا أوربان الثانى إبان الإعداد للحملة الصليبية الأولى . انظر سعيد عاشور ، أوروبا فى العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٢٦١ ،

T.F.Tout. *The Empire and the Papacy* (London, 1942) pp. 137 - 139 .
(١١) انظر السيد مصطفى سالم . *الفتح العثمانى الأول لليمن ١٥٣٨ - ١٦٣٥ م* .

(القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٤ م) ص ٤٦ ، وما بعدها .

R.B. Serjeant: *The Portuguese of the South Arabian Coast* (Oxford, 1963) pp. 2 - 3; Pestage. *The Portuguese Pioneers* (London, 1933) pp. 267 - 268.

(١٢) انظر ، زين الدين المليارى . *تحفة المجاهدين فى بعض أحوال المجاهدين (لشبونة:*

د . ن ، ١٨٩٨ م) ص ٤٤ - ٤٥ .

(١٣) المصدر نفسه ، ص ٤٥ - ٤٦ . انظر أيضاً محمود سمره (الصراع بين العرب

والبرتغاليين فى شرق افريقيا) مجلة العرب ، العدد (٥٩) (الكويت ، ١٩٦٣ م) ص ١٣٢ .

الطريق على المسلمين أسرا ونهباً ويأخذون كل سفينة غصباً إلى أن كثر ضررهم على المسلمين" (١٤) .

وهكذا واصل البرتغاليون تغلغلهم البحري ، لاحكام الحصار على العالم الإسلامي من ناحية، والسيطرة على التجارة الشرقية، من ناحية أخرى . كما سعوا إلى تنفيذ أطماعهم ، فأسندوا إلى القائد البرتغالي الفونسو دالبوكيرك (Alfanzo D'Albuquerque) (١٥) مهمة السيطرة على مدخل البحر الأحمر . وإستطاع دالبوكيرك إعداد حملة عسكرية سيطرت على جزيرة سقطرى (Socotra)

(١٤) قطب الدين النهرواني . البرق اليماني في الفتح العثماني (الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م) ص ١٨ - ١٩ .

(١٥) الفونسو دالبوكيرك استهل حياته العسكرية البحرية في الهجمات البرتغالية على سواحل المغرب ، ثم انتقل إلى ميدان الصراع الصليبي في بحار الشرق . كلفه ملك البرتغال إمانويل الثاني بإعداد مشروع يهدف إلى إنشاء إمبراطورية برتغالية كبيرة في الشرق ، فعلق البوكيرك أهمية كبيرة على بناء القلاع العسكرية الحصينة وقام ببناء حصون في هرمز ومسقط والبحرين . وقد انبط إليه قيادة الأسطول البرتغالي في بحار الهند ، ثم قاد أول حملة في الخليج العربي على هرمز في عام (٩١٥هـ / ١٥٠٩م) حتى تولى منصب نائب الملك في الهند خلفاً لفرانيسكو دى الميدا (Francisco de Almeda) . وفي عام (٩٢١هـ / ١٥١٥م) توفي في مقره في حوا الواقعة على ساحل ملبار والمطلّة على بحر العرب) انظر جمال زكريا قاسم . الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوربي الحديث (القاهرة : دار الفكر العربي ١٩٨٥م) ص ٥٢ - ٧٢ .

Serjeant, The Portuguese, p. 43, T. Wilson Arnold: The Persian Gulf: An Historical Sketch from the Earliest times to the beginning of the Twentieth Century (London, 1945) pp.125ff.

سال
نشر

وبعد
عن
وهم
نرقوا
في
وانى

للعون

وهو
الذى
عليه

م.١٦

pp.2
بونة:

رب

فى عام ٩١٣ هـ / ١٥٠٧ م، (١٦) مما جعلهم على مقربة من ميناء عدن الذى يفتح الطريق أمامهم إلى مدخل البحر الأحمر، وبالتالى يشقون طريقهم إلى ثغر جده (١٧).

وفى تلك المرحلة ، كانت الأوضاع مضطربة فى جنوب شبه الجزيرة العربية، مفتاح الطريق إلى البحر الأحمر، إذ اشتد الصراع بين عدة قوى متصارعة كانت فى غفلة عن الخطر البرتغالى الذى ألم بالمنطقة ، وغلبوا مصالحهم العائلية الوراثية على الصالح العالم للأمة الإسلامية .

فكانت هناك سلطنة الطاهريين السنية الشافعية وعاصمتها زبيد ، وقد بسطت سلطتها على المناطق الزراعية وأكثر المدن الكبيرة فى اليمن. مما فيها تعز وصنعاء وعدن ومخا . أما فى حضرموت إلى الشرق من دولة الطاهريين فقامت سلطنتان أخريان كبيرتان نسبياً هما : سلطنة اليمنيين وعاصمتها تريم ، وسلطنة

(١٦) انظر السيد مصطفى سالم ، الفتح العثمانى ، ص ٥٤ وما بعدها ،

Serjeant, The Portuguese p. 136.

وجزيرة سقطرى تقع بالقرب من جنوب الجزيرة العربية وإلى الشرق من عدن ، وهى جزيرة جبلية وعرة قليلة السكان تنتشر حولها الشعب المرجانية ، ولكن لها أهمية إستراتيجية لمن يريد التحكم فى مدخل البحر الأحمر .

(١٧) باخرمة : البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه. تحقيق محمد عبد العال ، ص ٩٧ وما بعدها ، سعد زغلول (البرتغاليون والبحر الأحمر) ، ص ٢٠٧ وما بعدها . بشير حمود كاظم : التهديد البرتغالى لتجارة البحر الأحمر ؛ أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية ٥ - ٧ محرم (١٤٠٨ هـ / ٢٩ - ٣١ أغسطس ١٩٨٧ م) العلاقة بين الخليج العربى وشرق أفريقيا . ج ٢ (رأس الخيمة : مركز الدراسات والوثائق فى الديوان الأميرى ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م) ص ١٠٣ - ١٢٣ .

الكواسر وعاصمتها الشحر . هذا بالإضافة إلى عدد من الحكام المحليين وأمراء القبائل الذين استقلوا تمام الإستقلال ، مثل حكام لحج ومهرة وظفار ، فضلاً عن الزيود والإسماعيليين فى المناطق الجبلية الشمالية فى اليمن (١٨) .

وبذلك لم يبق فى الشرق الأدنى سوى دولة المماليك كقوة إسلامية تتحمل وحدها عبء الحفاظ على سلامة البحر الأحمر وحمايته كبحيرة إسلامية من أى خطر صليبي جديد . وكان إن إرتفعت صيحات المسلمين من كل جانب تطلب النجدة من السلطان المملوكى قانصوه الغورى ، وعلى الأخص الصيحات التى انبعثت من مسلمى الهند وبعض أهالى بلاد اليمن (١٩) .

ولم يكن السلطان الغورى أقل إحسلاً بالخطر الجديد ، وبخاصة بعدما انكمشت إيرادات دولته من تجارة الشرق التى أخذت تتحول عن طريق مصر والبحر الأحمر إلى طريق المحيط ورأس الرجاء الصالح . لذلك أرسل الغورى تهديده

(١٨) وللمزيد من التفصيل انظر ، التهروانى . البرق اليماني ، ص ١٦ وما بعدها ، نيقولاى أيفانوف . الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦ - ١٥٧٤ . ترجمة يوسف عطا الله (بيروت : الفارابي ، سلسلة تاريخ المشرق العربى الحديث ، ١٩٨٨م) ص ١٢٠ - ١٢١ بشير حمود كاظم (التهديد البرتغالى لتجارة البحر الأحمر) ص ١١٦ - ١١٨ .

(١٩) مما لا شك فيه أن الموقف كان صعباً على دولة المماليك فى مصر ، لما كانت تعانيه عندئذ من ضعف وتمزق فى آخر عهدها ، لكنها لم تعتذر عن مواجهة البرتغاليين لأنها حتى ذلك الحين لازالت تدعى حمايتها للحرمين الشريفين فى الحجاز ، كما أن مسلمى الهند وغيرهم وجهوا إليها الإستغاثة وطلب النجدة والحماية من البرتغاليين . كذلك كان المماليك أكثر من سيقع عليهم الضرر من جراء هذا الزحف البرتغالى بسبب التهديد التجارى لهم ، وبسبب سيطرتهم على الموانئ الرئيسية فى البحر الأحمر ، لذلك وجب أن يكون رد فعلهم أسرع من أى قوة إسلامية أخرى .

الذى
إلى ثغر

لجزيرة
سارعة
لعائلية

، وقد
ما تعز
سامت
سلطنة

وهى
بة لمن

معد
وما
نيمة
لبح
ى ،

وتحذيره إلى ملوك أوربا يطلب منهم العمل على إيقاف الأعمال الوحشية والتوسعية التي يقوم بها البرتغاليون في البلاد الإسلامية وبحارها . بل لقد حذرهم في بعض رسائله ، بأنه سيقوم بعمل مماثل نحو رعاياهم من النصارى القاطنين في الديار المصرية والشامية وغيرهما من أملاك الدولة المملوكية.....على أن تهديدات الغورى لم تجد أذناً صاغية من ملوك أوربا ولم يأبهوا لها(٢٠) . كذلك اتصل السلطان الغورى بالبنادقة فطلب منهم تزويده بالأخشاب والمؤن اللازمة لبناء أسطول يواجه به البرتغاليين ، لكنهم امتنعوا عن مساعدته خوفاً من غضب البابوية عليهم(٢١) . وثبت إمتناعهم هذا أن الحرب التي قامت بها البرتغال في الشرق كانت حرباً صليبية جديدة ضد المسلمين تدعمها البابوية وملوك أوربا ومدن إيطاليا البحرية .

والسؤال الذى يفرض نفسه هنا هو تباطؤ الممالك الذين لم يبدأوا الإستعداد لمواجهة البرتغاليين إلا فى عام ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م ، مع العلم بأن القوات البرتغالية وصلت إلى الهند ، وشرعت فى تهديد المسلمين وتجارتهم هناك

(٢٠) انظر المليارى ، تحفة المجاهدين ، ص ٤٠ ، النهروانى ، البرق اليمانى ، ص ١٩ ، أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور . تحقيق محمد مصطفى (القاهرة : عيسى الحلبى ، ١٩٦٠ - ١٩٦٣ م) ج ٤ ، ص ١٨٢ ، السيد مصطفى سالم ، الفتح العثمانى ، ص ٦١

Duarte Barbosa. A Description of the Coast of East Africa and Malabar in the Beginning of the Sixteenth Century, tr. by. Henry Stanley (London, 1866) pp. 50 - 51.

(٢١) للمزيد من التفاصيل عن دور البنادقة فى الصراع الإسلامى الأوروبى فى عهد دولة المماليك ، انظر ابن إياس ، بدائع الزهور ، ص ٢٠٤ وما بعدها ، السيد مصطفى سالم . الفتح العثمانى ، ص ٧٧ وما بعدها .

منذ مطلع القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) . وربما لم يدرك الممالك حقيقة الخطر البرتغالى إلا بعد أن أخذ هذا الخطر يتغلغل فى البلاد ، أو أنهم اعتقدوا بأنه لن يكون هناك تهديد لهم أو لتجارهم ما دام الطريق البحرى عبر البحر الأحمر إلى المحيط الهندى فى مأمن من التهديد البرتغالى . هذا إلى أن الممالك كانوا غارقين فى مشاكلهم الداخلية بعد أن دخلت دولتهم دور الإحتضار . ومن يتبع الأوضاع السياسية فى ذلك الدور يلحس عدم الإستقرار فى سياسة الدولة لكثرة الفتن والثورات الأهلية ، إلى جانب الفوضى والفساد الإدارى الذى عم دولة سلاطين الممالك فى تلك المرحلة (٣٣) .

وكان أن اشتد تخوف الممالك من دخول البرتغاليين البحر الأحمر ومهاجمتهم موانئه ، وعلى الأخص ميناء جدة الذى يفتح الطريق أمامهم إلى الأماكن المقدسة . لذلك عزم السلطان قانصوه الغورى على إرسال حملة بحرية إلى جدة بقيادة الأمير حسين الكردى (٣٤) . ويذكر ابن إيلس فى هذا الشأن أن

(٢٢) وللمزيد من التفصيلات عن تدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية فى العقود الأخيرة من عصر الدولة المملوكية ، انظر ، إبراهيم على طرخان . عصر فى عصر دولة الممالك الجراكسة (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٠م) ، نعيم زكى فهمى . طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب فى أواخر العصور الوسطى (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣م) ص ١٣٠ وما بعدها ، على إبراهيم حسن . تاريخ الممالك البحرية (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٧م) .

(٢٣) الأمير حسين الكردى الذى تولى الإمارة للسلطان الغورى فى جدة ، وعهد إليه طرد البرتغاليين من البحر الأحمر والمحيط الهندى حين كثرت تعدياتهم على المسلمين (وللمزيد من التفصيلات عنه ، انظر النهروانى ، البرق اليمانى ، ص ١٩ ، وللمؤلف نفسه . الأعلام بأعلام بيت الله الحرام ، ص ٣٤٥ ، وعبد القادر بن فرج . السلاح والعدة فى تاريخ بندر جدة ، ص ٥٣ .

السلطان الغورى أطلق على هذه الحملة اسم "التجريدة المعنية إلى بلاد الهند" وأطلق على قائدها "باشا تجريدة الهند" (٢٤) ويفهم من عنوان الحملة ومن لقب قائدها أنها تستهدف حماية المياه الهندية ، ولكنها رابطت فى جدة لفترة تزيد عن العام لإحكام تحصيناتها ضد البرتغاليين الذين كانوا يتطلعون للوصول إليها وإلى مقدسات المسلمين فى الحجاز .

وهكذا أقطع الأسطول المملوكى من ميناء السويس فى ٦ جمادى الآخر من سنة ٩١١ هـ الموافق الرابع عشر من نوفمبر لسنة ١٥٠٥م (٢٥) ، وكان هذا الأسطول مؤلفاً من ثلاث عشرة سفينة . ولم تذكر المصادر التاريخية المعاصرة عدد جنود الحملة ، وإنما أشارت إلى أنهم كانوا من المماليك السلطانية ، وعدد من أولاد الناس (٢٦) الذين يجيدون إستخدام الأسلحة النارية ، كما كان المغاربة

(٢٤) انظر ابن إياس بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٢٠٣ ، وللمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة انظر باخرمة . البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه ، دراسة وتحقيق محمد عبد العال ، ص ٩٧٠ وما بعدها ، يحيى بن الحسين بن القاسم . غاية الأمانى ، ج ٢ ، ص ٦٣٤ وما بعدها ، التهرؤانى البرق اليمانى ، ص ١٩ وما بعدها .

(٢٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٨٤ - ٨٥ .

(٢٦) والمقصود بأولاد الناس فرقة خاصة من أبناء الأمراء المماليك المتوقين حيث جرت العادة أن يعطى للواحد منهم إقطاع متناسب مع مرتبة أمير خمسة فى النظام الحربى المملوكى بشرط أن يندرج فى الرديف السلطانى ويكون صالحاً للخدمة فى الوظائف المدنية الصغرى زمن السلم . انظر القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٥ ، محمد مصطفى زيادة . المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى (القاهرة : د.ن، ١٩٥٤م) ص ٢٤ ، ٤٧ .

يؤلفون أغلب أفراد تلك الحملة لأنهم كانوا ذوى خبرة فى القتال البحرى وإستخدام المدافع فضلاً عن كونهم بحارة ماهرين (٢٧) .

ويذكر ابن إياس أن حملة الأمير حسين الكردى التى ودعها السلطان الغورى من القاهرة إتجهت إلى السويس فى طريقها إلى جدة؛ وأنها اصطدمت ببعض أعراب بنى إبراهيم حول ينبع فقتلت عدداً كبيراً منهم ، واحرق رجال الحملة بعض الدور التى تقع على ساحل البحر الأحمر فى ميناء ينبع وخربوا الدكاكين وشئتوا عربان قبائل بنى إبراهيم (٢٨) . ودفع هذا الشيخ عبد القادر بن فرج ، من سكان جدة ، إلى الإعتقاد بأن السبب الرئيسى من وراء حملة الكردى إلى جدة وتحصينها هو

(٢٧) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٨٤ - ٨٥ ، ٩٦ ، السيد مصطفى سالم .
الفتح العثمانى ، ص ٦١ .

(٢٨) انظر ابن إياس ؛ بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٩٥ وما بعدها . ويذكر أن بنى إبراهيم من أشهر القبائل التى كانت تسكن يومئذ بين مكة المكرمة ، وكانت السلطات المملوكية فى مصر توكل إليهم حراسة قافلة الحج المصرية فى بعض مراحل الطريق بين ينبع ومكة . وفيما بين سنة ٩٠٧ هـ وسنة ٩١١ هـ قام هؤلاء الأعراب بكثير من السلب والنهب لحجاج بيت الله الحرام ، بل تكررت هجماتهم على التجار فى كل من ثغر جدة ومكة المكرمة . وقد استفحل أمرهم فى سنة ٩١١ هـ لدرجة أن السلطان الغورى أمر بإيقاف التوجه إلى الحج فى هذه السنة من مصر والشام وسائر الأمصار حتى يقوم بتأمين طريق القوافل من شر هؤلاء المفسدين . وللمزيد من التفاصيل ، انظر ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٩٥ وما بعدها ، عبد القادر بن محمد القادر الأنصارى الجزيرى . الدرر القوائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة (الرياض : منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م) ج ٢ ، ص ٧٨١ - ٧٩٣ .

حماتها من أعراب بنى إبراهيم الذين أقلقوا حياة الناس فى هذا الثغر الحيوى بغاراتهم المتكررة عليه من عام (٩٠٧ - ٩١١ هـ / ١٥٠١ - ١٥٠٥ م) (٢٩) . وما أن وصل الأمير حسين الكردى إلى جدة حتى شرع فى بناء سور ضخيم ذى أبراج عالية حول مينائها (٣٠) . ويبدو أنه بالغ فى بناء ذلك السور حيث أنه هدم كثيراً من بيوت الناس التى تقع بالقرب من موضع السور واستخدام عامة الناس فى البناء زيادة على الأعداد الكبيرة من البنائين والنجارين وغيرهم من الفنيين الذين جلبهم معه إلى جدة ، حتى استطاع أن يتم بناء السور فى أقل من عام (٣١) .

وقد بذل الأمير حسين الكردى جهداً كبيراً من أجل إحكام بناء هذا السور حول ثغر جدة ، حتى صار حاجزاً منيعاً فى وجه البرتغاليين فى محاولاتهم العديدة لإختراقه والسيطرة على جدة . لذا نرى أن نتوقف قليلاً لتتناول بإيجاز وصفاً لهذا السور وكيفية وطريقة بنائه حتى نقف على مدى قوته وضحامته ومنعته ، والدور الذى قام به فى حماية جدة :

(٢٩) انظر ، عبد القادر بن فرج : السلاح والعدة فى تاريخ بندر جدة ، ص ٥٠ - ٥٤ ، وللمزيد من التفاصيل عن بنى إبراهيم وما قاموا به من خراب فى بلاد الحجاز ، انظر الجزيرى ، الدور الفرائد ، ج ٢ ، ص ٧٨١ وما بعدها .

(٣٠) انظر ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٨٤ وما بعدها ، النهروانى ، كتاب الأعلام ن ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٣١) وذكر أن الأمير حسين الكردى كان عقابه شديداً على من يتهاون ويتقاعس فى عمله أثناء بناء السور ، سواء كان من العمال الذين جلبهم معه من مصر ، أو من سكان جدة القادرين على العمل والمساهمة فى البناء . انظر ، النهروانى ، كتاب الأعلام ، ص ٢٤٥ -

يذكر عبد القادر بن فرج فى مؤلفه ، (السلاح والعدة فى تاريخ بندر جدة) (٣٢) وصفاً للسور فيقول : "وكان طول أساس السور فى الأرض إثنى عشر ذراعاً ، وطول المحيط بالبلد من جهة القبلة واليمن والشام ثلاثة آلاف ذراع من غير الأبراج ، وهى ستة أبراج ، دور كل برج فيها ستة عشر ذراعاً بجداره ، وعرض جدار السور أربعة أذرع . وأما الأبراج فطول الشامى واليمانى من على وجه الأرض خمسة عشر ذراعاً ، والبرجان القبليان الملاصقان لباب البلد المسمى أحدهما بباب الفتوح وهو الأيمن والآخر بباب النصر وهو الأيسر ، وطولهما من على وجه الأرض أيضاً كذلك . أما البرجان البحريان فقد نزل بهما الغواصون فى البحر اثنى عشر ذراعاً....." (٣٣) .

(٣٢) انظر ، ص ٥٥ .

(٣٣) وقد أشار عبد القادر بن فرج بأن المقصود بالأذعة المذكورة هو ذراع العمل ويساوى ذراعاً ونصف بذراع النجار . انظر ، ص ٥٥٠ والمقصود بالذراع النجارى حسب ما عرفه الملك المظفر الرسول فى مخطوطه المخترع فى فنون من الصنع هو ، ثلاثة أشبار باليد ويساوى ٢٤ الأصبع ، والصبع عقد أتملة السبابة من الظاهر ، وكل ٨ أصابع من هذا القياس شبراً ، انظر المظفر الرسول . المخترع فى فنون من الصنع مخطوط الأصفية (٢٢١) متفرقات ، ورقة ٦٩ . وفى كتاب الإيضاح والتباين فى معرفة المكيال والميزان لأبى العباس نجم الدين بن الرفعة الأنصارى ، ص ٧٧ ، أن الذراع هو مسافة ما بين طرفى المرفق إلى نهاية طرف الأصبع الوسطى من اليد ، وفيه أن ذراع الفقهاء هو ست قبضات معتدلات من كل قبضة أربعة أصابع ، وكل أصبع بعرض ست حبات من الشعير ، وكل شعيرة بعرض ست شعرات من شعر البغل . ومن أسمائه ، ذراع اليد ، والغزل ، والعامة والعتيق والعادلة والمرسلة والقائمة والكرباس وذراع اليد . انظر على بن محمد الماوردى . الأحكام السلطانية فى الولايات الدينية (بيروت : دار الكتب العلمية ، د.ت) ص ١٩٤ - ١٩٥ ، تقى الدين أحمد المقرئ . كتاب الخطط (القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ، د.ت) ج ١ ، ص ٥٩ .

ومن باب استكمال التحصينات حول ميناء جدة بدأ الأمير حسين الكردي في حفر خندق يحيط بالمدينة من جميع جهات البر . وبعد إتمام البناء وحفر الخندق زود الماليك المدينة بكثير من المدافع والعتاد الحربى . ويذكر ابن فرج أن السلطان الغورى صرف على عمارة السور وملحقاته - من أبراج وجسور وجامع ومصلى للعيد وحفر الخندق - مبلغ مائة ألف دينار(٣٤) .

وبعد انتهاء الأمير الكردي من استكمال التحصينات التى عملها حول جدة اتجه بحملته نحو الجنوب ، فسيطر على عدد من الثغور الهامة على الساحل الشرقى للبحر الأحمر(٣٥) ، ثم واصل الإبحار فى الميناء الهندية لمواجهة الأسطول البرتغالى . وسرعان ما تلقى المساعدة من مسلمى الهند الذين إنضموا تحت قيادته . وأخيراً اشتبك الأسطولان (المصرى والبرتغالى) فى معركة بحرية

(٣٤) انظر عبد القادر بن فرج : السلاح والعدة فى تاريخ بندر جدة ، ص ٥٧٠ ويعتبر كتاب ابن فرج المصدر الوحيد الذى ذكر لنا وصف السور الذى بناه الكردي حول مدينة جدة . وإقامة المؤلف فى جدة ربما ساعدته على أن يدون لنا هذه المعلومات عن السور ، بالإضافة إلى أنه من معاصرى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) .

(٣٥) ويذكر أن الأمير حسين الكردي توجه من جدة إلى سواكن فأستولى على مينائها، وأقام بعض الإستحكامات فيها من أجل تأمين البحر الأحمر ، ثم واصل سيره إلى الموانئ فى الجنوب مثل جازان ، وكرمان ، والمخا ، وأخيراً عدن . انظر ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٩٦ ، باخرمة ، البحر الأحمر ، تحقيق محمد عبد العال ، ص ١٠٢ - ١٠٣ ، عبد الرحمن بن على بن البديع . قررة العيون فى أخبار اليمن الميمون . تحقيق محمد بن على الخوالى (القاهرة : د.ن ، ١٩٧٧م) ص ٢١١ ، السيد مصطفى سالم . الفتح العثمانى ، ص ٦١ - ٦٢ .

تمكن الأمير حسين الكردي من تحقيق انتصار رائع فيها على البرتغاليين في موقعة شول (Chaul) (٣٦) ، سنة (٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م) . وكان قائد الأسطول البرتغالي ، لورنز (Lorenz) ، من بين القتلى في تلك المعركة ، الأمر الذي أثار غضب والده فرانسيسكو دي الميدا الذي قرر الانتقام لولده ، فأعد أسطولاً مكوناً من تسع عشرة سفينة . وخرج بها للإشتباك مع الأسطول المصري في موقعة ديو (Diu) البحرية في عام (٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م) . وفي تلك الموقعة هزم المسلمون ودمرت معظم السفن المملوكية (٣٧) . ويذكر زين الدين المليباري تفاصيل هامة عن هذه المعركة ، فيشير إلى أن الأسطول البرتغالي إنتهز فرصة لجوء الأسطول المملوكي ومن كان معه من مسلمي الهند إلى جزيرة ديو للتموين والإصلاح ، وانقض البرتغاليون على أعدائهم من الخلف فدارت معركة بحرية ضخمة انتصر فيها البرتغاليون على المسلمين ، وقتلوا كثيراً من بحارة الأمير حسين الكردي ، وأرغموه على الإنسحاب بما تبقى من سفنه ، والعودة إلى جدة لتقوية تحصيناتها (٣٨) .

وعلى أثر الهزيمة التي لحقت بالأسطول الإسلامي في الهند تقدم البرتغاليون إلى مياه البحر الأحمر وهددوا بلاد اليمن والحجاز ومصر ، وخاصة بعد أن صار البوكيرك نائباً للملك البرتغال في الهند خلفاً لفرانسيسكو دي الميدا . وكان أن

(٣٦) شول : ميناء يقع على الشاطئ الغربي للهند ويتبع مملكة الدكن الإسلامية ؛

انظر، السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني ، ص ٦٢٠

(٣٧) وللمزيد من التفصيلات ، انظر : ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٩٦

وما بعدها ، باخرمة ، البحر الأحمر ، تحقيق محمد عبد العال ، ص ١٠٣ وما بعدها ، السيد مصطفى سالم . الفتح العثماني ، ص ٦٣ وما بعدها ، أحمد دراج . الممالك والفرنجة

(القاهرة: د.ن، ١٩٦١م) ص ١٣٧ - ١٣٨٠

H.MORSE STEPHENS. PORTUGAL (LONDON, 1891) PP. 196FF.

(٣٨) انظر ، المليباري ، تحفة المجاهدين ، ص ٤٠ وما بعدها .

وصلت القوات البرتغالية إلى ميناء عدن في المحرم من سنة (٩١٩ هـ / ١٥١٣ م) (٣٩) . وفي أواخر صفر من نفس العام استولوا على جزيرة كمران (٤٠)، فدمروها وقتلوا كثيراً من أهلها . ثم تركوها متجهين شمالاً نحو ميناء جدة (٤١) . وكان دالبوكيرك يسعى للتقدم نحو ميناء مصوع التابع لمملكة الحبشة ، لكي يتمكن من الاستيلاء على جزر دهلك المواجهة لثغر جدة ، ومنها يتقدم نحو مهاجمة جدة ، وإقامة علاقات تحالف ضد المسلمين مع دولة الحبشة لتدمير قوات المماليك في البحر الأحمر ومهاجمة الأماكن المقدسة في الحجاز (٤٢) .

(٣٩) وكانت قوات دالبوكيرك مكونة من عشرين سفينة ومن ألف وسبعمائة جندي برتغالي وحوالي ثلاثمائة من نصارى الهند . وقد وصل إلى ميناء عدن وهاجمه لكنه لم يستطع إحتراقه لوعورة تضاريس عدن وعظم تحصينها واستبسال رجالها في رد الهجوم البرتغالي ، فرجع عنها دون فائدة . وللمزيد من التفصيل ، انظر يحيى بن الحسين بن القاسم . غاية الأمانى ، ج ٢ ، ص ٦٤٠ وما بعدها ، باخرمة ، البحر الأحمر ، دراسة وتحقيق محمد عبد العال ، ص ١١١ وما بعدها ، السيد مصطفى سالم . الفتح العثماني ، ص ٧٠ - ٧٣ ،

Stephens, Portugal, pp.190 - 200 . Wilson, the Persian Gulf, pp.117 - 119.

(٤٠) كمران ، جزيرة كبيرة مشهورة في البحر الأحمر مقابلة للساحل اليمني تجاه وادي سردد . انظر باخرمة ، البحر الأحمر ، ص ١٢٢ ، أبو العباس أحمد بن عبد اللطيف الشرجي . طبقات الخواص أهل الصدق والآخلاص (د.ن، ١٣٢١ هـ ص ١٢١ - ١٢٢) .

(٤١) انظر ، باخرمة ، المصدر السابق ، ص ١٢٠ وما بعدها ، وللمؤلف نفسه . تاريخ ثغر عدن (لندن : مطبعة بزييل ، ١٩٣٦ م) ج ١ ، ص ١٥ - ١٦ .

(٤٢) انظر ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٥٣ ، وللمؤلف نفسه . (بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى) مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية عدد (١٤) (١٩٦٨ م) ، السيد مصطفى سالم . الفتح العثماني ، ص ١٠٨ وما بعدها .

وسعى دالبوكيرك إلى تحقيق مشروعه الكبير عن طريق التطلع إلى جدة ،
فسار نحوها صوب الشمال ، لكن الرياح المعاكسة أعاقت تقدمه واضطرته
للرجوع إلى جزيرة كمران فبقى بها أكثر من شهرين يمارس أنواع القرصنة
والتخريب في البحر الأحمر ثم عاد أدراجه إلى بلاد الهند (٤٣) .

على أن هزيمة المماليك أمام الأسطول البرتغالي بالهند في معركة ديو ،
لا تعنى أن القوى افسلامية متمثلة في دولة سلاطين المماليك في مصر وغيرها
وقفت مكتوفة الأيدي أمام ذلك الغزو الصليبي الذي استهدف السيطرة على
ثروات المسلمين ومقدساتهم . وكان السلطان الغورى على علم بحجم الأسطول
البرتغالي ، فعزم على إنشاء قوة بحرية جديدة تستطيع أن تقف في وجه البرتغاليين .
لكن الغورى كان يعاني نقصاً في الأخشاب والعمال والمواد اللازمة لبناء أسطول
بحرى قوى ، فقرر الإتصال بأطراف مختلفة لإعائته في إعداد حملة ثانية
ضد البرتغاليين . وذكر ابن إياس (٤٤) أنه أعاد الكرة ، فأتصل بالبنادقة لمباحثتهم
حول إمداده ببعض الأخشاب والأسلحة والمعدات اللازمة لبناء سفن الأسطول
المصرى الجديد . وفي تلك المرة تجاوبوا معه لما لحقهم من أضرار اقتصادية
نجمت عن سيطرة البرتغاليين على تجارة الشرق ، بعد أن كانت البندقية
هى المسكة بزمامها . لذلك أرسلوا له عدة سفن تحمل بعض الأخشاب
والمعدات الحربية ؛ إلا أن فرسان القديس يوحنا اعترضوا سبيلها فى

(٤٣) انظر باخزمة ، البحر الأحمر ، تحقيق محمد عبد العال ، ص ١٢٠ وما بعدها ،

السيد مصطفى سالم . الفتح العثماني ، ص ٧١ - ٧٤ ، Serjeant The Portuguese،

pp.169 - 170

(٤٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٩١ - ١٩٢ .

رودس^(٤٥) فأحرقوا بعضها واستولوا على البعض الآخر ، بحيث لم تصل إلى مصر سفينة واحدة من هذه السفن^(٤٦) . ونلاحظ ازاء موقف البنادقة ، أنهم غيروا موقفهم ، مما يعكس الدافع الحقيقى لدورهم فى تلك المرحلة التاريخية ، بمعنى أنهم عندما تظاهروا بالإستجابة للبايويه فى المرة الأولى كانوا متظاهرين بطاعة البايوية ، ولكن مصالحهم الاقتصادية تغلبت فى المرة الثانية على ذلك الموقف الدينى . وهذا يؤكد حقيقة الدافع الاقتصادى فى توجيه العلاقات بين العالم الإسلامى والعالم الأوروبى فى تلك الحقبة التى تعتبر ذيلًا للحروب الصليبية .

ثم كان أن اتصل السلطان قانصوه الغورى بالسلطان العثمانى بايزيد الثانى (٨٨٦هـ / ١٤٨١م - ٩١٧هـ / ١٥١٢م) ، الذى عرف بورعه وتدينه ، وطلب منه المساعدة ، وأوضح له خطورة نشاط البرتغاليين الذين يسعون للسيطرة على موانئ البحر الأحمر ، وخاصة ثغر جدة ، مما يمكنهم من الوصول إلى مقدسات المسلمين فى الحجاز للنيل منها^(٤٧) . وفى شوال من عام

(٤٥) فرسان القديس يوحنا كانوا يسيطرون على جزر فى شرق البحر المتوسط متخذين من جزيرة رودس مقرا رئيسيا لهم ، ومنها يسعون إلى مهاجمة الموانئ الإسلامية ، وقاموا بكثير من أعمال القرصنة البحرية فى مواجهة السفن الإسلامية ، معتقدين أن هذه الأعمال العدوانية ضد المسلمين من قبيل الجهاد الدينى . وقد بقوا فى جزيرة رودس حتى طردهم منها السلطان العثمانى ، سليمان القانونى ، إلى جزيرة مالطة فى قلب البحر المتوسط ، وبقوا بها إلى أن قضى عليهم نابليون بونابرت وهو فى طريقه إلى مصر عام ١٧٩٨م .

(٤٦) انظر ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٩١ - ١٩٢ .

(٤٧) لم تكن الدولة العثمانية منعزلة تمام الإنعزال عن الحجاز ، فإن حجاجها كانوا يأتون كل عام فى موسم الحج . وكان سلاطين آل عثمان يرسلون الهدايا إلى الحرمين كل عام ، وكانوا حريصين كل الحرص على إبلاغ أمراء مكة المكرمة بانتصاراتهم فى أوروبا . وعندما

(٩١٦هـ / ١٥١١م) إستجاب السلطان العثماني لطلب السلطان الغورى ، ووصلت إلى مصر سفن عثمانية عديدة ، تحمل ثلاثمائة مدفع ، وثلاثين ألف سهم ، وأربعين قنطاراً من البارود ، وألفى مقذاف من الخشب ، وبنادق ، وغير ذلك من عتاد الحرب ، هدية إلى سلطان مصر بدون مقابل ليواجه البرتغاليين . ومع هذه المساعدات جاء نحو ألفين من البحارة العثمانيين بقيادة سلمان الرئيس للمساعدة فى إعداد الأسطول الجديد فى ميناء السويس والمشاركة فى الحملة البحرية المنتظرة إلى الهند^(٤٨) .

وتشير بعض الروايات التاريخية إلى أن المماليك كانوا على صلة دائمة بأمراء الممالك افسلامية فى الهند ، وكانوا يثيرون حماسهم الدينى من أجل التعاون معهم

فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م أرسل إلى شريف مكة رسالة بهذه المناسبة يشره فيها ويطلب منه الدعاء ، كما أرسل إليه بعض الهدايا من غنائم الفتح . وكان العثمانيون يطمحون فى مد نفوذهم إلى الحرمين الشريفين وتتوق نفوسهم إلى أن ينعتوا بلقب خادم الحرمين الشريفين ، ذلك اللقب الذى إعتز به حكام مصر من المماليك وغيرهم . وللمزيد من التفصيلات انظر ساطع الحصرى . البلاد العربية والدولة العثمانية (القاهرة : معهد الدراسات العربية ١٩٥٧م) ص ٢٦ وما بعدها .

(٤٨) انظر ، ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٩٦ ، ٢٠١ ويشير ابن إياس فى حديثه عن حملة السويس إلى إهتمام السلطان الغورى بسلمان الرئيس وجماعته عندما ذهب إلى السويس بنفسه للإحتفال بإنزال سفن الأسطول البحرى ، فقال : "....وكان هناك الرئيس سلمان العثماني وجماعة من العثمانية البحارة فقصده السلطان إظهار العظمة لأجل جماعة ابن عثمان ، حتى قيل دخل العسكر إلى السويس وهو لايس آلة الحرب . وكانت جماعة ابن عثمان هناك نحو ألفين...." انظر ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٩٦ ، ٣٦٥ ، باخرمة ، البحر الأحمر ، تحقيق محمد عبد العال ، ص ١٣١ - ١٣٢٠ .

ومساعدتهم فى تحصين مدينة جدة وحماية المقدسات الإسلامية التى كان البرتغاليون يلوحون باستمرار بالوصول إليها وتدميرها . واسفرت هذه المشاعر والمساعى عن قيام سلاطين الممالك الإسلامية فى الهند بتقديم كميات كبيرة من التوابل والأقمشة وغيرها . وشحنت هذه المساعدات بعد عام (٩١٩ هـ / ١٥١٣ م) على متن ثلاثة مراكب من الهند إلى جدة مساهمة منهم فى تقوية سور جدة وتحصينها وحمايتها من التهديد البرتغالى (٤٩) .

وفى أثناء إنشغال الممالك فى بناء قوة بحرية فى السويس ، وصلت أنباء إلى الحجاز وإلى مصر تفيد بأن البرتغاليين غادروا بلاد الهند بقيادة دالبوكيرك فى عام (٩٢١ هـ / ١٥١٥ م) على رأس حملة مكونة من ست وعشرين سفينة وألف وخمسمائة برتغالى وسبعمائة من نصارى الهند متوجهين إلى البحر الأحمر بهدف الوصول إلى جدة ومكة المكرمة وتخريبهما . ولم يكن أمام السلطان الغورى إلا أن أرسل على الفور قوة إلى جدة بقيادة الأمير حسين الكردى ، الذى عاد بعد معركة ديو للإشراف على بناء الأسطول المصرى الجديد فى السويس (٥٠) ، وعندما وصل الأمير الكردى إلى ميناء جدة لتقوية أسوارها ودفاعاتها مرة ثانية ، بالغ فى تحصينها إلى الحد الذى أثار سخط بعض معاصرية من التجار ، ولم يسلم من إنتقاد بعض المؤرخين المعاصرين (٥١) . ويذكر أنه اعتمد فى نفقات التحصين

(٤٩) انظر ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٣٠٧ - ٣٠٨ ، بشير حمود كاظم (التهديد البرتغالى لتجارة البحر الأحمر) ص ١١٣ .

(٥٠) انظر ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٣٠٧ وما بعدها .

(٥١) انظر ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٣٠٧ وما بعدها ، النهرى ، البرق اليمانى ، ص ١٩ ، وللمؤلف نفسه ، كتاب الأعلام ، ص ١٦٥ - ١٦٧ ، ٢٤٥ ، باخرمة : البحر الأحمر ، دراسة وتحقيق محمد عبد العال ، ص ١٣٠ ؛ السيد مصطفى سالم ، الفتح العثمانى ، ص ٧٩ - ٨٠ .

وبناء السور والقلاع على مصادرة أموال التجار ، كما أجبر كثيراً من أهالي جدة على العمل فى البناء والدفاع^(٥٢) . ودفع الأمير الكردى إلى اتخاذ هذه السياسة القاسية خطورة الموقف ، وما قد ينتج من أخطار على المسلمين لو وقعت جدة فى أيدي الغزاة من البرتغاليين . هذا فضلاً عن تدهور الأحوال الاقتصادية فى دولة سلاطين الممالك وفى البحر الأحمر ، بسبب هجمات البرتغاليين ، مما كان ذا أثر كبير على تصرفات الأمير الكردى تجاه أهل جدة أو من كان يفد إليها من التجار .

أما الحملة البرتغالية فقد غادرت الهند بقيادة دالبوكيرك فى طريقها إلى البحر الأحمر لتحقيق أهدافها العدوانية . وبينما هو فى طريقه وصله خبر أن ملك هرمز أصبح صنيعة فى يد شاه فارس ، وأنه من المحتمل أن يطرد البرتغاليين من هرمز . لذلك غيّر القائد البرتغالى خط سيره وقام بزيارة عسكرية إلى هرمز واحكم سيطرته عليها . وفى تلك المرحلة أصابه المرض واشتد به فعاد إلى الهند حيث توفى هناك عام (٩٢١هـ / ١٥١٥م) ، وبذلك سلمت جدة والأماكن المقدسة من نوايا دالبوكيرك^(٥٣) .

أما عن الأمير حسين الكردى فقد تتابعت الإمدادات العسكرية إلى قواته ، وأرسل له السلطان الغورى قوة عسكرية أخرى لكى تساعده فى أحكام التحصينات حول ثغر جدة . وأخيراً تم الإنتهاء من إعداد الحملة البحرية الجديدة فى السويس وهى التى اشتهرت حينئذ باسم "حملة الهند" ؛ وصارت على أهبة الخروج للجهاد فى بداية عام (٩٢١هـ / ١٥١٥م) . وكانت تتألف من عشرين

(٥٢) المصادر نفسها .

(٥٣) وللمزيد من التفاصيل انظر :

سفينة حربية^(٥٤) ، أما عدد أفرادها فكانوا حوالى ستة آلاف ، أغلبهم من البحارة العثمانيين والمغاربة والتركمان ، والباقي من البيوت والفرق المملوكية المختلفة . ويستطرد ابن إياس فى حديثه عن جهود السلطان الغورى ، فيذكر أنه توجه بنفسه إلى ميناء السويس لإستعراض جنود الحملة فى إحتفال كبير فى ١٠ رجب سنة ٩٢١هـ (٢٠ أغسطس سنة ١٥١٥ م)^(٥٥) وعين سلمان الرئيس قائداً للأسطول ، على أن يتولى قيادة الحملة الأمير حسين الكردى عند وصولها إلى مقره فى جدة . ويذكر أن السلطان الغورى انفق حوالى أربعمئة ألف دينار على بناء الأسطول ، كما أنعم على سلمان الرئيس ببعض الهدايا والعطيات . ولم ينس النجارين والبنائين والحدادين الذين عملوا فى بناء الأسطول وإعداده فأنعم عليهم أيضاً ببعض المنح المختلفة^(٥٦) .

وعندما استكملت القوات المصرية إستعدادها غادرت السويس إلى ميناء جدة حيث بقيت فيه طوال شهر رمضان . ثم ابجرت نحو الجنوب بقيادة الأمير حسين الكردى ويساعده الأمير سلمان الرئيس^(٥٧) . وبدأ قادة الحملة يخططون لإقامة بعض التحصينات فى موانئ البحر الأحمر ، وخاصة فى الثغور اليمنية التى كانت فى حاجة إلى جبهات دفاع على غرار التحصينات التى أقامها الأمير حسين الكردى فى جدة ، وذلك بهدف إغلاق البحر الأحمر من الجنوب أمام البرتغاليين .

(٥٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٣٩٥ ، يحى بن الحسين بن القاسم ، غاية الأمانى ، ج ٢ ، ص ٦٤١ - ٦٤٣ .

(٥٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٤٦٦ - ٤٦٧ .

(٥٦) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٦٢ وما بعدها .

(٥٧) انظر السيد مصطفى سالم . الفتح العثمانى ، ص ٧٩ وما بعدها .

ولكن لم يتم لهذه الحملة النجاح لأنها اشتبكت مع أمراء اليمن الذين امتنعوا عن مساعدتها ، بل رفضوا إقامة تحصينات فى بلادهم^(٥٨) . وبسبب ذلك تأجل البحار الحملة إلى الهند ، وظل أسطول الممالك راسيا عند شواطئ جزيرة كمران ثمانية أشهر منصرفاً لبناء التحصينات فيها . واضطر الكردي بتأييد من إمام الزيديين فى صعده و فقيه لحج وشريف جازان إلى الهجوم على السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهرى الذى لقي مصرعه وسقطت عاصمته زبيد . وبذلك إنتقلت تهامة ومخا وتعز إلى أيدي الممالك . ثم كان أن أحكم الكردي الحصار على عدن براً وبحراً إلا أنها استعصت عليه مما أضطر الممالك إلى رفع الحصار عنها والعودة ثانية إلى القواعد التى إنطلقوا منها^(٥٩) .

وهكذا تجمعت عوامل عديدة واجهت حملة الممالك و غيرت من سياستها وأهدافها ، وجعلتها تتوقف عند أطراف اليمن الجنوبية دون أن تواصل تقديمها نحو الهند ، وبالتالي فقد تغيرت سياستها العسكرية من سياسة هجومية إلى سياسة دفاعية . وقد عبرت بعض المصادر التاريخية عن هذه الحملة وذكرت الأسباب والعوامل التى أدت إلى تلك النتيجة ، ونلخص أهمها فيما يلى :

أولاً : تؤكد بعض المصادر التاريخية أن السبب الرئيسى فى عدم تحقيق الأمير حسين الكردي هدفه بالوصول إلى الهند هو خلاف وقع بينه وبين سلمان الرئيس ، الأمر الذى أدى إلى حدوث إنقسام بين أفراد الأسطول المملوكى ، فتوجه

(٥٨) انظر ، النهروانى ، البرق اليماني ، ص ٢٠ ن السيد مصطفى سالم . الفتح العثماني ، ص ٨٠ وما بعدها .

(٥٩) انظر نيقولاى . الفتح العثماني للأقطار العربية ، ص ١٢٠ وما بعدها .

سلمان الرئيس إلى ميناء زيلع ومنها إلى جدة ، بينما عاد الأمير الكردي إلى جدة بعد مروره بالموانئ اليمنية الواقعة على ساحل البحر الأحمر . وجاء ثمره سلمان الرئيس وإنفراده بقيادة الأسطول المرابط في جدة تنفيذاً لأوامر السلطان سليم العثماني بالقبض على الأمير حيسن الكردي وإغراقه في البحر الأحمر . وقد حدث ذلك بعد إستيلاء العثمانيين على مصر وقضائهم على دولة الماليك الجراكسة (٦٠).

ثانياً : عدم تعاون أمراء اليمن ، كما أشرنا ، وخاصة السلطان اليمنى عامر بن عبد الوهاب الطاهري ، الذي سبق أن طلب النجدة من سلطان الماليك في بداية الأمر ، وخاصة بعد وصول البرتغاليين إلى جنوب البحر الأحمر ومحاولتهم السيطرة على ميناء عدن . ولهذا لم يكن أمام القوات المصرية إلا مهاجمة أمراء اليمن ، وبالأخص أمراء الدولة الطاهرية ، من أجل إخضاعهم ثم مواصلة السير لمواجهة البرتغاليين . ولكن حدث عندما بدأ الصراع بين الطرفين أن تطور الأمر إلى معارك وحروب أخرجت الحملة عن هدفها الأساسي .

وفي ظل الظروف التي مات فيها دالبوكيرك البرتغالي ، وفشل قوات الماليك في مواصلة سيرها نحو بلاد الهند ، كان البرتغاليون يعدون حملة أخرى تحت قيادة لوبوسوريز (Lopo Soares) خليفة دالبوكيرك ، بهدف اقتحام البحر الأحمر ومهاجمة ميناء جدة . وقد غادرت تلك الحملة الهند في عام (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) . وكانت تتكون من أربعين سفينة ونحو ألفين من الرجال المسلحين . وعند وصولها إلى عدن لم يهاجمها لوبوسوريز بل تقدم إليها في سلام ، وطلب من

واليها مرجان الظافري أن يمدّه بالمؤن اللازمة ، وبيعض المرشدين البحريين لإرشاد الحملة إلى ثغر جدة . فأجاب الأمير مرجان هذه المطالب . على أن هذه الحملة البرتغالية فشلت أمام ميناء جدة ، وذلك بفضل التحصينات التي كان قد أجراها الأمير حسين الكردي من قبل ، فاضطر لوبوسوريز إلى أن يتقهقر بحملته . وقام الأمير سلمان الرئيس ، الذي تحمل مسؤولية صد هذا الهجوم ، بمطاردة السفن البرتغالية حتى غادرت مياه جدة والموانئ القريبة منها (٦١) .

وتثير هذه الحملة التي قادها لوبوسوريز إلى البحر الأحمر عدة نقاط تحتاج إلى توضيح ، إذ نتساءل لماذا قدم أمير عدن المساعدة للنصارى ضد المسلمين ، وخاصة أنهم يسعون إلى مهاجمة ثغر جدة والأماكن المقدسة في الحجاز ؟ ولماذا تقاعست دولة المماليك عن مساعدة القوات الإسلامية في جدة خلافاً لما كانت تفعل سابقاً ؟ وأخيراً كيف استطاع سلمان الرئيس وأهل جدة التصدي لتلك الحملة البرتغالية الكبيرة ؟ .

وفي اعتقادنا أن لوبوسوريز مر بميناء عدن دون السيطرة عليه لأنه كان يعتبره هدفاً ثانوياً بالنسبة لميناء جدة ، وفي رأيه أنه إذا سيطر على ثغر جدة فلن يصعب عليه الرجوع إلى عدن وإحتلالها بعد أن يكون قد أمسك في قبضته بواسطة العقدة "جدة" . هذا إلى أنه وجد التعاون من أمير عدن ، مرجان الظافري ، وهذه فرصة ، حيث أن هذا الأمير المسلم لم يقتصر في مساعدته على تقديم المؤن والمعدات وإنما أرسل معه مرشدين بحريين يدلونه على الطريق إلى

(٦١) باخمرمة ، البحر الأحمر ، دراسة وتحقيق محمد عبد العال ، ص ١٩٨ - ٢٠٠ ،

السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص ١٠١ - ١٠٣ ،

جدة. وربما كان القائد البرتغالى قد أدرك صعوبة الملاحة فى البحر الأحمر ، وأنها من أسباب فشل بعض حملات البرتغاليين السابقة .

على أن هذا التصرف من قائد الحملة (لوبوسوريز) جعل بعض الكتاب الغربيين يهاجمونه بسبب إضاعته هذه الفرصة الثمينة فى السيطرة على ميناء عدن ، بل أن ملك البرتغال غضب هو الآخر من لوبوسوريز فعزله من منصبه كنائب للملك فى الهند (٦٢) .

أما تقديم أمير عدن المساعدة للبرتغاليين ضد المماليك المسلمين فيرجع ذلك إلى عدة أسباب ، ومنها :

١ - ذكرت المصادر ما قام به الأمير حسين الكردي وسلمان الرئيس من حروب ضد أمراء اليمن ، مما أدى إلى قتل سلطانهم عامر عبد الوهاب الطاهرى . وربما كان قيام مرجان بمساعدة البرتغاليين بالموءن والعتاد والمراقبين البحريين بهدف الإنتقام من المماليك ، وخاصة أن قائد الحملة البرتغالية ذكر للعدينيين عندما وصل بلادهم بأنه لن يؤذيهم ولا يرغب فى السيطرة على عدن وإنما يريد الذهاب إلى جدة للسيطرة عليها (٦٣) .

٢ - إن مساعدة مرجان الظافرى للبرتغاليين ضد المسلمين يعتبر فى حد ذاته خيانة ، وهذه ظاهرة فردية لها ما يشبهها فى تصرفات بعض أمراء وأعيان

(٦٢) انظر :

Wilson, *The Persian Gulf*, pp. 123 - 124, M. Longworth Dames, "The Portuguese and Turks in the Indian Ocean in the Sixteenth Century" *Journal of the Royal Asiatic Society*. Part:1 (January, London, 1921) pp. 12 - 13.

(٦٣) بانخرمة ، البحر الأحمر ، دراسة وتحقيق محمد عبد العال ، ص ١٩٨ وما بعدها ،

يحيى بن الحسين بن القاسم . غاية الأمانى ، ج ٢ ، ص ٦٥٨ - ٦٥٩ ز السيد مصطفى

سالم ، الفتح العثمانى ، ص ٨٥ وما بعدها .

المسلمين فى كل من العراق وفارس ، وشرق أفريقيا والأندلس ، وبلاد الشام وغيرها فى العصور الوسطى ، حيث يتردد ذكر تعاون بعض المسلمين مع المسيحيين ضد أخوانهم فى الإسلام^(٦٤) .

وكان الدافع غالباً وراء تلك الظاهرة المصلحة أو الإنتقام كما حدث من مرجان الظافرى . وربما تناسى أمير عدن أن حملة لوبوسوريز متجهة نحو جدة والأماكن المقدسة فى الحجاز . ولا ندرى هل أدرك ما سيقرب على دخول البرتغاليين إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة لو نجحوا فى السيطرة على ميناء جدة ؟ وإن قلنا أن مرجان تجاوب مع البرتغاليين من باب الخوف على نفسه وعلى عدن من خطرهم فإن هذا لا يبرر موقفه ، وخاصة أن مساعدته لم تقتصر على المؤن والعتاد وإنما أرسل مرشدين مع البرتغاليين فى البحر الأحمر .

٣ - وإذا ما استبعدنا عنصر الخيانة عند الأمير مرجان الظافرى ، فربما كان سبب تعاونه مع البرتغاليين أنهم وصلوا إلى بلاده فجأه ، وكان يحتاج إلى بعض الوقت لتعزيز فيه التحصينات حول عدن ، وعندئذ رأى أفضل السبل فى أن يسلك جانب اللين مع لوبوسوريز، فيقدم له المساعدات لكى يبعده فى طريقه نحو

(٦٤) ولعل حوادث خيانة بعض المسلمين لصالح المسيحيين كثيرة على مدار التاريخ الإسلامى ، وبالتالي لا يمكن حصرها فى هذا المقام ، ولكن نشير إلى أقرب مثال من هذا النوع لهذا البحث . وأقصد بذلك أن الرسول الذى أرسله ملك الحبشة (إسحق) إلى ملوك غرب أوروبا عام ١٤٢٨ م ، من أجل دعوتهم للمشاركة فى حرب صليبية كبرى ضد المماليك فى مصر ، كان تاجراً فارسياً مسلماً اسمه على نور الدين التبريزى . انظر جمال الدين يوسف أبو المحاسن . النجوم الزاهرة فى ملوك مصر القاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، نشر وليم بير ، عام

ميناء جدة فى الشمال مدركاً بأن قوات المماليك سوف تتصدى له ، وعند عودته عن طريق عدن يكون هو الآخر قد إستعد لمواجهةهم . والسبب الذى يجعلنا نأخذ بهذا رأى إننا نجد الأمير مرجان الظافرى يغير رأيه تجاه البرتغاليين بعد أن فشل لوبوسوريز فى الدخول إلى جدة ، فيتصدى له ولحملته ويحاربهم وتستمر سياسته لهم فى الحملات التى قادوها بعد لوبوسوريز (٦٥) .

أما عن موقف المماليك السلبى تجاه الدفاع عن ميناء جدة والتصدى للبرتغاليين فكان ناتجاً كما سبق أن ذكرنا عن الضعف الذى كانت تعانيه الدولة المملوكية فى آخر أيامها . وقد أحس العثمانيون بذلك الضعف فلم يتركوا المجال للبرتغاليين ليجهزوا على المماليك، وإنما أخذوا قصب السبق فقضوا على السلطان قانصوه الغورى عام (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) ، وبالتالى أسدلوا الستار على دولة سلاطين المماليك وتولوا عبء الدفاع عن بلاد المسلمين والوقوف فى وجه البرتغاليين (٦٦) . وفى الوقت الذى كانت دولة المماليك تحتضر فى كل من بلاد مصر والشام لتحل الدولة العثمانية محلها ، كان لوبوسوريز يسعى للسيطرة على ميناء جدة والدخول إلى الأماكن المقدسة لتدميرها . ولا تشير المصادر التاريخية إلى أية مساعدة أو استعدادات أرسلت من دولة المماليك إلى ثغر جدة لمواجهة الغزو البرتغالى الأخير ، حيث كانت دولتهم تلفظ أنفاسها الأخيرة على يد السلطان

(٦٥) يحيى بن الحسين . غاية الأمانى ، جـ ٢ ، ص ٦٥٩ وما بعدها باخرمة ، البحر الأحمر ، دراسة وتحقيق محمد عبد العال ، ص ٢٠٣ وما بعدها .

(٦٦) وللمزيد من التفصيلات انظر ، النهروانى ، البرق اليمانى ، ص ٤٢ وما بعدها ، باخرمة ، البحر الأحمر ، دراسة محمد عبد العال ، ص ٢٠٤ وما بعدها ، على حسون . تاريخ الدولة العثمانية (بيروت: المكتب الإسلامى ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) ص ٤٥ - ٥٢٠ .

سليم العثماني (٦٧) . ثم أن العثمانيين أنفسهم قابلوا بعض المشاكل أثناء دخولهم بلاد الشام ومصر للقضاء على دولة سلاطين المماليك ، فلم يتمكنوا هم الآخرون من إرسال قوة تدافع عن جدة والمقدسات الإسلامية ، وخاصة أن دخولهم مصر والسيطرة عليها تزامن مع الحملة البرتغالية التي دخلت البحر الأحمر بقيادة لوبوسوريز في عام (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) (٦٨) .

أما كيف تقهقرت الحملة البرتغالية من أمام ميناء جدة ، وخاصة أنها أول حملة استطاعت الوصول إلى جدة ، فلا نجد في المصادر التاريخية تفصيلات عن الصدام الذي حدث بين البرتغاليين والمسلمين المرابطين في جدة . وكل ما أشارت إليه هو تصدى سلمان الرئيس بمن كان معه في الميناء لتلك الحملة الكبيرة حتى استطاعوا هزيمة البرتغاليين ومطاردتهم في مياه البحر الأحمر (٦٩) . ويبدو أن هناك ظروف عدة ساعدت على إنهزام البرتغاليين ورجوعهم عن جدة ، وخاصة أن القوى الإسلامية في كل من مصر والشام كانت تمر بمرحلة عصيبة فلم تتمكن من التصدي للبرتغاليين كما فعل المماليك في الأعوام السابقة لحملة لوبوسوريز . وهذه الظروف يمكن إجمالها فيما يأتي :

١ - مناعة السور والتحصينات التي كان قد أقامها الأمير حسين الكردي حول جدة . وقد اعترف البرتغاليون أنفسهم بتلك التحصينات عندما حاولوا اختراقها في تلك الحملة الأخيرة (٧٠) .

(٦٧) المصادر نفسها .

(٦٨) باخرمة ، المصدر السابق ، ص ١٨٠ وما بعدها ، النهرواني ، البرق اليماني ،

ص ٣٥ وما بعدها .

(٦٩) باخرمة المصدر السابق ، ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٧٠) السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص ١٠١ - ١٠٣ ،

٢ - ربما ساعدت الشعب المرجانية التى يزخر بها البحر الأحمر فى إعاقه الحركة عند البرتغاليين ، خاصة وأنهم كانوا يجهلون ممرات ذلك البحر. ولعل حرصهم على أخذ مرشدين بحارة من العدنيين ليعينوهم فى رسم الطريق لهم فى هذا البحر أكبر دليل على عدم درايتهم بدروبه ونظام الملاحة فيه .

٣ - لا نستبعد أن يكون أولئك الملاحين الذين أرسلهم أمير عدن قد أحسوا بعظم الجريمة التى يقومون بها فى مساعدة الصليبيين ضد إخوانهم المسلمين، وأدركوا ما يحل بالمسلمين من مصائب لو تمكن النصارى من السيطرة على الحرمين الشريفين ؛ لهذا فإنهم لم يخلصوا فى أرشادهم للبرتغاليين ، وربما زودوهم بمعلومات غير صحيحة أدت إلى فشلهم ضد القوات الإسلامية المدافعة عن جدة .

٤ - عظم الأمر على المسلمين بوصول البرتغاليين إلى جدة التى هى بوابة مكة المكرمة ، ولا نستبعد أن يكون جميع من فى جدة ، بل من فى الحجاز ، قد عملوا ما فى جهدهم للدفاع عن جدة ضد هذا العدو الصليبي الجديد . والسبب الذى يجعلنا نجزم بهذا القول ، هو أن جدة صارت رباطاً للمجاهدين ، بل ظهرت فتاوى من علماء المسلمين فى الحرمين وغيرهما بأن ميناء جدة أهم رباط فى الإسلام ، فينبغى لمن دخله أو أقام فيه أن ينوى المراقبة والجهاد والدفاع عن بيت الله الحرام ، ويحمل ما يستطيع حمله من السلاح لدفع أهل الشرك والعناد . وهناك من العلماء من افتى بأن ثغر جدة أفضل الثغور لقربه إلى بيت الله الحرام فى مكة المكرمة الذى يكون من دخله آمناً ، وأن فضل من رابط فيه على سائر الم رابطين كفضل مكة على سائر البلدان فى سائر الأزمان والدهور . وذكروا عن رسول

الله - صلى الله عليه وسلم - قوله : "يأتى على الناس زمان يكون أفضل الرباط رباط جدة" (٧١) .

هذه هى نظرة الإسلام والمسلمين إلى جدة درع الحرمين . وعندما يصل الأمر إلى ما وصل إليه فى حملة لوبوسوريز البرتغالى من خطر على جدة والحرمين ، لابد وأن يكون صدى ذلك عند المسلمين ، وخاصة المواجهين للخطر المباشر مثل سكان الحرمين ، قوياً وعنيفاً ، يبدلون فيه الغالى والرخيص من أجل الدفاع عن الكعبة المشرفة ، وقبر الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - وهذا بالفعل ما حدث من أهل الحجاز عندما دهمهم الخطر البرتغالى عام (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) .

وبعد أن قضت الدولة العثمانية على دولة سلاطين المماليك فى مصر عام (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) انتقلت أمانة حماية الحرمين إلى العثمانيين الذين ورثوا مهمة الدفاع عن البحر الأحمر ضد هجمات البرتغاليين . وقد بقيت جدة فى حسابان سلاطين بنى عثمان لأهميتها بالنسبة لمسيرة التجارة فى البحر الأحمر ، ولقربها من الحرم الشريف فى مكة المكرمة . ولهذا حافظوا على صلاتهم الوطيدة بأمراء مكة من الأشراف ، وسعوا إلى أحكام التحصينات على جدة والتصدى للقوات البرتغالية التى لم تكف بحملة لوبوسوريز .

ذلك أن البرتغاليين لم يكفوا عن مهاجمة البحر الأحمر ، وخاصة ميناء جدة ، وإنما أعدوا حملة بحرية كبيرة بقيادة نائب الملك البرتغالى لوبوسكويرا الذى خلف لوبوسوريز ، فخرجت هذه الحملة من الهند حتى وصلت إلى مدخل البحر الأحمر

(٧١) انظر ، القاسى ، شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٨٧ - ٨٨ ، عبد القادر بن فرج السلاح والعدة فى تاريخ بندر جدة ، ص ٤٠ - ٤٢ ، حسن أحمد محمود. إنتشار الإسلام فى أفريقية . (القاهرة : د. ن، ١٩٦٣م) ص ١٩ - ٢١ .

فى أوائل سنة (٩٢٦هـ / ١٥٢٠م) . وكان هدف لوبرسكويرا ، مثل من سبقه ، هو التركيز على مهاجمة جدة بصفة خاصة ، فلم يتوقف فى عدن وإنما سارع بالتقدم إلى ميناء جدة قبل أن يفوته موسم الرياح . ولكنه لم يتمكن من الوصول إلى جدة لمعاكسة الرياح لسفن حملته ، ولأنه علم أن بها حشوداً عسكرية كبيرة تعمل على التصدى له (٧٢) . وعندئذ انحرف لوبرسكويرا إلى ميناء مصوع بهدف الاتصال بالأحباش لعقد تحالف مشترك ضد القوى الإسلامية (٧٣) ، ثم عاد أدراجه إلى بلاد الهند .

وفى السنوات الأخيرة من العقد الثالث فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) حاول البرتغاليون مرة أخرى مد نفوذهم على البحر الأحمر ، وخاصة على الموانئ الرئيسية فيه ، مثل مينائى جدة وعدن ، لكنهم لم يستطيعوا السيطرة عليهما لتصدى القوى المحلية لهم فى كل من اليمن والحجاز ، فضلاً عن أن الدولة العثمانية التى كانت قد ورثت مسؤوليات سلاطين المماليك فى الدفاع عن البحر الأحمر وحماية المقدسات الإسلامية ، دأبت على تعزيز سواحل البحر الأحمر المطل على الحجاز ببعض القوات العسكرية (٧٤) . ولم ينبر العثمانيون

(٧٢) انظر النهروانى ، البرق اليمانى ، ص ٧٠ وما بعدها ، السيد مصطفى سالم ،

الفتح العثمانى ، ص ١٠٥ - ١٠٦ ، Serjeant, The Portuguese, pp.171 - 172.

(٧٣) وللمزيد من التفاصيل عن العلاقات مع الأحباش : سعيد عاشور ، الحركة

الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٥٣ ، السيد مصطفى سالم ، الفتح العثمانى ، ص ١٠٨ وما بعدها .

Alvarez (a Portuguese pp.311 - 311, 393ff.

(٧٤) انظر باخرمة ، البحر الأحمر ، دراسة وتحقيق محمد عبد العال ، ص ٢١٠ وما

بعدها ، النهروانى ، البرق اليمانى ، ص ٧٨ وما بعدها .

بشكل جاد فى العمل على طرد البرتغاليين من البحر الأحمر وإغلاقه أمام قواتهم إلا فى منتصف القرن العاشر الهجرى . والسبب فى تأخرهم أكثر من عشرين سنة بعد دخولهم مصر وقضائهم على دولة المماليك عام (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) ، هو انشغالهم بالعديد من الفتن والثورات فى بلاد فارس والعراق وغيرهما من بلدان الشرق الأدنى (٧٥) .

وفى تتبعنا لتلك الحملات البرتغالية على ميناء جدة فى أواخر عصر دولة سلاطين المماليك حتى قضى العثمانيون على هذه الدولة عام (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) لابد من إلقاء نظرة على الجبهة الداخلية فى الحجاز -جدة ومكة المكرمة- وموقف هذه الجبهة من العدوان الصليبي ، وما ترتب على كل ذلك من آثار سلبية.

ولشرح ذلك نقول إنه من المعلوم أن أهل الحجاز كانوا فى خوف مما دهم بلادهم ، وخاصة إن هذا الخطر المتمثل فى البرتغاليين لم يكن كأي خطر آخر ، لأنهم أدركوا أن البرتغاليين يسعون للسيطرة على جدة لكي يتمكنوا من الدخول إلى مكة لتدميرها . ولذا فإن الصراع كان عقائدياً بين النصارى والمسلمين قبل أن يكون صراعاً إقليمياً على أرض أو ما شابهها . ومن واقع هذا الإحساس أخذ علماء الحجاز يصدرون الفتاوى لكل الناس يحثونهم على الجهاد ويبينون عظم الأجر والثوبة لمن يحمل سلاحه وعتاده ويذهب فى سبيل الله إلى جدة للمرابطة فيها ضد البرتغاليين (٧٦) . وكان أن تجاوب أناس كثيرون مع هذه الدعوة ، على

(٧٥) وللمزيد من التفاصيل انظر: على حسن، تاريخ الدولة العثمانية ص ٤٢-٦٦ .

(٧٦) انظر عبد القادر بن فرج . السلاح والعدة فى تاريخ نبلر جدة ، ص ٤٠ وما

رأسهم أمير مكة فى عهد السلطان قانصوه الغورى الشريف بركات (٧٧) الذى ذهب فى جمع كبير من مكة إلى جدة أثناء عمل الأمير حسين الكردى فى بناء سور جدة ، فعملوا جميعاً فى تشييد السور وملحقاته . كذلك ساعد الأمير الشريف بركات فى نزع ملكية بعض البيوت التى كانت قرية من السور ، وبقي إلى جانب الأمير حسين الكردى يشرف على عملية البناء . وأشارت إحدى الروايات إلى أنه كان يقف على العمارة راكباً فرسه ، ليحضر بحضوره جميع من بالبلد ويعينون فى حمل المّون ، الكبير والصغير والغنى والفقير ، المأمور والأمير (٧٨) . وظل أهل الحجاز ، وخاصة أمراء مكة ، متيقظين لتحركات البرتغاليين فى المياه الهندية ومحاولة دخولهم إلى البحر الأحمر ، فتجدهم على اتصال دائم بحاميات المسلمين ، التى تركها حسين الكردى فى جدة ، بعد رجوعه إلى السويس للإشراف على الأسطول المبرى الحديد الذى كان يعده الغورى بعد هزيمة جيشه فى معركة ديو ، فيساعدونهم ويمدونهم ببعض السلاح والعتاد ، إلى جانب رفع روحهم المعنوية بوصفهم يدافعون عن مقدسات المسلمين . كذلك ظل أمراء الحجاز على صلة مستمرة بالسلطان قانصوه الغورى يطلعون على ما ينذر

(٧٧) هو بركات بن محمد بن حسن بن عجلان ، تولى إمارة مكة المكرمة بعد وفاة أبيه ، وكانت له وقائع مع إخوانه هزاع وحميضة والجازانى ، وتوفى بمصر عام ٩٣١هـ / ١٥٢٥م . انظر : عبد القادر بن شيخ العبدروس : النور السافر عن أخبار القرن العاشر (بغداد : د. ن ، ١٣٥٣هـ ص ١٥٢) ، أحمد دحلان . خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام (القاهرة : د. ن ، ١٣٠٥هـ) ص ٤٦ - ٥٢ .

(٧٨) انظر عبد القادر بن فرج السلاح والعدة فى تاريخ بندر جدة ، ص ٥٨ .

من البرتغاليين فى الشرق ، ويطلبون منه سرعة النجدة ضد الغزو الصليبي مرة بعد أخرى . أما الشريف بركات من أمراء الحجاز فكان حريصاً على تعزيز التحصينات فى جدة وإطلاع السلطان الغورى بكل جديد . من ذلك أنه حدث فى عام (٩١٩هـ / ١٥١٣م) أن ساد أهل الحجاز خوف شديد عندما سمعوا بخروج حملة برتغالية من الهند فى طريقها إلى جدة ، الأمر الذى دفع الشريف بركات للتوجه مع بعض رجاله من مكة إلى جدة لكى يتصدى لهذه الحملة المنتظرة، كما أسرع فى مخاطبة السلطان الغورى وبيّن له خطورة الموقف وطلب منه المدد والنجدة ، فأرسل إليه السلطان قوة عسكرية بقيادة حسين الكردي لتدافع عن ثغر جدة حتى يتم تجهيز الأسطول الجديد الذى كان السلطان الغورى يعده فى السويس (٧٩) .

وقد سبق أن أشرنا إلى حملة البرتغال بقيادة لوبوسوريز ضد جدة ومكة فى عام (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) ، وكيف أنها منيت بالهزيمة من الحامية المحلية التى كانت مقيمة فى رباط جدة . ونضيف هنا أن النصر الذى أحرزه المسلمون ضد تلك الحملة الصليبية لم يحدث من فراغ ، مع ملاحظة أنه لم يأتهم أى مدد أو نجدة من المماليك أو غيرهم ، وإنما تم النصر بفضل تماسك وتعاون الجبهة الداخلية فى الحجاز مما مكّن المسلمين المرابطين فى جدة من رد هجمات البرتغاليين .

وكانت جدة فى أواخر العصر المملوكى تتبع إدارياً بشكل مباشر سلطان المماليك فى القاهرة ، فهو الذى يعين مشرفاً يتولى إدارة جدة ، ويطلق على هذا

الموظف لقب "نائب جدة" أو "ناظر جدة" (٨٠) . وكانت مهمته إدارة الأمور السياسية والتجارية والنظر فى أمور التجار فى الميناء ، ثم جمع الضرائب المفروضة على التجارة القادمة إلى جدة ، وخاصة من بلاد الهند . وهذا النظام السياسى الجديد لم تعرفه جدة إلا فى أواخر العصر المملوكى ، فى حين كانت إدارتها وجباية الضرائب فيها من قبل من مسؤوليات أمراء مكة من الأشراف (٨١) . وهناك أسباب جعلت سلاطين الممالك الأواخر يتولون الإدارة المباشرة لميناء جدة وتمثل هذه العوامل فيما يلى :

١ - تدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية فى دولة سلاطين الممالك ، وإحتياجهم إلى الأموال التى تغطى نفقاتهم ، مع إدراكهم أهمية ميناء جدة الذى ترتاده السفن التجارية من شتى بلاد المشرق ، فضلاً عن كثرة الضرائب التى تجمع

(٨٠) أن أهمية جدة الاقتصادية وما يفد إليها من تجارات العالم وما يؤخذ من ضرائب ، جعلت سلاطين الممالك الأواخر يستاثرون بتلك الضرائب عن طريق السيطرة إدارياً ، وبشكل مباشر ، على ثغر جدة ، بعد أن كانت من قبل تابعة لأمير مكة المكرمة . وهذا التصرف من الممالك يؤكد لنا تدهور أحوالهم الاقتصادية ، حتى أصبحنا نراهم يلجأون إلى جمع المال بأى طريقة كانت . وللمزيد من التفصيلات عن أحوال جدة الإدارية والاقتصادية فى أواخر عهد الممالك أنظر : تقى الدين أحمد المقرئ . السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٧٣م) ج ٤ ، ص ٧٠٧ وما بعدها ؛ ريتشارد مورتييل : الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة فى العصر المملوكى (الرياض : عمادة شؤون المكتبات ، جامعة الملك سعود ، ١٩٨٥م) ص ١٧٣ وما بعدها .

(٨١) المصادر نفسها .

من التجار الذين يرتادون هذا الميناء . ولهذا رأى السلاطين أهمية إستثمارهم بهذه الضرائب بدلاً من أن ينفرد بها أمراء مكة ، مبررين عملهم ذلك بدفاعهم عن ميناء جدة وعن المقدسات الإسلامية فى الحجاز^(٨٢) .

٢ - لم يحسن أمراء مكة المكرمة جمع الضرائب من تجار جدة ، وإنما بالغ بعضهم فى جمعها حتى إرتفعت الشكاوى من بعض التجار الذين كانوا يرتادون الميناء ، وبالتالي صار بعضهم يغير اتجاه تجارته إلى بعض الموانئ الأخرى على سواحل البحر الأحمر كزيلع ، أو عدن ، أو ينبع وغيرها^(٨٣) . وهذا الوضع فى جدة ساعد سلاطين الماليك فى التحكم فى تجارها وتجارته ، ظناً منهم أن الأحوال الأمنية والإدارية ، وخاصة فيما يمس الناحية التجارية ، ستكون فى حالة أفضل من ذى قبل . ولكن سرعان ما سارت الأمور إلى الجانب المعاكس . أما عن الجوانب السلبية التى عانت منها جدة فى تلك الحقبة فيمكن تلخيصها فيما يلى :

١ - تدهور الأحوال الاقتصادية ، وخاصة التجارية منها ، فى ميناء جدة وفى الطريق المؤدى إلى موانئ مصر الرئيسية . وكان ذلك مظهرًا من مظاهر الخلل الذى أصاب الأوضاع فى الدولة المملوكية بوجه عام . ويظهر الحال واضحًا فى حديث ابن إياس عن حوادث سنة (٩٢٠هـ / ١٥١٤م) عندما قال : "....وكان فى تلك الأيام ديوان الفرد وديوان الدولة وديوان الخاص فى غاية الإنشجاب والتعطيل ، فإن بندر الإسكندرية خراب لم تدخل إليها القطائع (السفن الكبيرة)

^(٨٢) المصادر نفسها .

^(٨٣) ريتشارد مورتيل ، الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة فى العصر المملوكى ،

فى السنة الخالية ، وبندر جدة خراب نأوا من ست سنين...."(٨٤) . وءءء ابن إياس ىصور لنا سوء الءال الذى لء بمىناء جدة فى السنوات التى كان ءالبو كىرك البرءغالى مءزعمًا مطاردة المسلمىن ومهاجمءهم فى عقر ءارهم .

٢ - قسوة بعض الأمراء الذىن كانوا يعىنون من قبل السلطان الغورى على مىناء جدة ، ءتى قىل إن بعضهم كان لا ىتهاون فى أخذ الناس بالقوة ، وءاصة التجار منهم ، فكانوا ىجمعون منهم الضرائب الباهظة . ومن لا ىءاوب مع رجال الممالىك ىءرض لعقوبة قاسية قد ءوءى بءىاة البعض منهم . وكان الأمير ءسىن الكردى ، الذى أشرف على بناء سور جدة وءءصىناتها أعظم مءال لقسوة أمراء الممالىك على التجار فى جدة ، إذ ءكرء بعض المصادر ءارىءىة أنه كان ىأخذ العشر من ءءار الهند ، المءل عشرة أمءال(٨٥) . وعمله هذا كان من الأسباب التى ءفعء التجار الهند إلى الإنصراف عن النزول فى ءغر جدة ، وبءلك آل أمر المىناء إلى ءءهور والءراب .

وقء ءكرء الرواىاء ءارىءىة ما قام به الأمير الكردى من بطء عندما كان فى جدة ىشرف على ءءصىنها ، فكان ىءىر الناس على ءءءىم أموالهم والمشاركة بأرواءهم وأءسادهم فى ءعزىز ءءصىنات ءول جدة ، ومن ىءكاسل أو ىتهاون فىما أوكل إىله كان ىءرض للعقوبات الصارمة من الأمير الكردى ،

(٨٤) ابن إياس ، بءائع الزهور ، ءء ٤ ، ص ٣٥٩ .

(٨٥) انظر ، ابن إياس ، بءائع الزهور ، ءء ٥ ، ص ٩٠ ، ءهروانى ، البرق الىمانى ،

ص ١٩ وما بعءما - أءمء ءراج ، الممالىك والفرءة ، ص ٥٧ ، السىء مصطفى سالم ، الفءء

العءمانى ، ص ٧٩ - ٨٠ .

وكثيراً ما لجأ إلى عقوبة القتل أو الشنق لمن يبدو منه أى إمتناع أو مراوغة^(٨٦) .
وهذه السياسة التى سلكها الكردي انتقده فيها بعض المؤرخين ، حتى وصفوه
بالقسوة والوحشية^(٨٧) . ولو أن البعض إلتمس له العذر لإحساسه بفداحة الخطر
البرتغالى وإدراكه أن دولة المماليك كانت تعاني فى آخر عهدها من أزمت مالية
كبيرة .

وإذا كانت سفن البرتغال قد نجحت فى مياه بحر العرب والمناطق القريبة من
باب المندب ، إلا أن التحصينات البحرية فى ميناء جدة لم يقدر للبرتغاليين النيل
منها على الإطلاق ، سواء فى نهاية العصر المملوكى أو مع بدايات العصر
العثمانى ، مما يعنى أن تكاليف إنشائها مهما فاقت حدود وإمكانات الدولة
والأهالى فإنها كانت فى النهاية واقياً منيعاً ، أسهم فى سلامة البحر الأحمر ،
وبالأخص ثغر جدة ، من السفن البرتغالية التى كانت ترفع راية الصليب على
أشروعها .

وإذا نظرنا إلى عامة موظفى الدولة المملوكية ، أو موظفى الإدارة العثمانية
فى جدة بعد سقوط دولة المماليك نراهم أشد قسوة على أهل جدة وتجارها لما
قاموا به من سلب ونهب فى أسواقها ، بل ما صدر منهم من فساد وخراب حتى
إنقطعت الميرة عن جدة ومكة المكرمة ، وارتفعت الأسعار وانتشرت الأمراض
ووقع القحط الشديد^(٨٨) .

(٨٦) النهروانى ، كتاب الأعلام ، ص ٢٤٥ ، عبد القادر بن فرج ، السلاح والعدة

فى تاريخ بندر جدة، ص ٥٥ - ٥٨٠ .

(٨٧) النهروانى، البرق اليمانى، ص ١٩ وللمؤلف نفسه، كتاب الأعلام ، ص ٢٤٥٠ .

(٨٨) يحيى بن الحسين . غاية الأمانى ، ج ٢ ، ص ٦٢٦ - ٦٢٧ ، ٦٦٧ .

٣ - أدت إغارة بعض القبائل العربية على ميناء جدة ، وخاصة عشائر بنى إبراهيم الذين كانوا يسعون إلى قطع الطريق على الحجاج ، بل وصل بهم الأمر فى بعض الأحيان إلى تهديد التجار فى ثغر جدة ، وسلب ما لديهم من أموال و سلع مختلفة . وقد بادر السلطان الغورى بإرسال قوات عسكرية أكثر من مرة لكى تردعهم وتفرقهم . ومن أعظم تلك القوات تلك الحملة التى قادها الأمير حسين الكردى فى طريقه إلى جدة إذ إصطدم بهم وهزمهم وأخذ على زعمائهم الموائيق بعدم مهاجمتهم التجار فى جدة .

* * *

و خلاصة القول أن العداء بين الشرق والغرب فى تلك الحقبة يمثل صراعاً بين اتباع عقيدتين هما الإسلام والمسيحية ، بمعنى أنه كان مظهرًا من ذبول الحروب الصليبية . وما لمسناه فى هذا البحث من خروج البرتغاليين من بلاد غرب أوروبا نحو الهند ثم عملهم باستمرار للدخول إلى البحر الأحمر لكى يسيطروا على موانئه ، وخاصة ميناء جدة الذى يوصلهم إلى مقدسات المسلمين فى الحجاز ، ليس إلا أسلوبًا جديدًا من أساليب الصليبيين التى استهدفوا من ورائها السيطرة على ثروات المسلمين ، ثم نشر معتقداتهم فى أراضى المسلمين ، وأخيرًا السيطرة على مقدسات المسلمين لإذلالهم . وهذه محاولات ليست جديدة على المسلمين فقد رأينا الصليبيين الأوائل يأتون إلى بلاد الشرق الأدنى منذ أواخر القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر للميلاد وهم يحملون نفس المبادئ التى جاء بها البرتغاليون ، لكنهم عادوا مدحورين دون أن يتحقق لهم ما كانوا يتطلعون إليه .

وهكذا غدا البحر الأحمر ميدانا واسعا من ميادين الحروب الصليبية فى عصرها الأخير . وفى هذا الميدان برزت أهمية جدة الدينية والاقتصادية لتكون قاعدة كبرى ، بل القاعدة البحرية الأولى التى صمدت أمام غزوات البرتغاليين دفاعاً عن الحرمين الشريفين .